الباب الأول

مقومات التقدم

المفتاح الأول

القيادة

مفهـــوم القيادة: هى ملكة تحديد المســـار والقـــدرة على التوجيه، وفـــى اللغة العربية القود نقيض (الســـوق) يقال: يقود الدابة من أمامها ويســـوقها من خلفها، فالقائد هو الدليل والقدوة، ومكانه دائما فى المقدمة.

ومن هنا فإن القائد هو الشخص الذى يستخدم مهاراته وقدراته وسلوكه ومواهبه ونفوذه وقوتـــه، ليؤثر فى توجهات تابعيه وســـلوكهم ويدفعهم فى مســـارات معينة لإنجاز أهداف محددة، فهو المصباح المضىء الذى ينير الطريق لمن يتبعه.

وقد تتســـع وتضيق دائرة تأثير القائد بحســـب الموقع الذى يشـــغله، لذلك فالقائد الذى يعنينـــا فـــى هذا المقام، رئيس الدولة فهو مُصَرف أمورها والمســـئول الأول عن أعمالها، وهو الذى يضع سياســـة الدولة ويشـــرف على تنفيذها، ولحجم هذا المنصب، وعظم مســـئولياته واتســـاع مهامه وواجباته، تتطلب أن يكون على رأس الدولة قائد بكل ما تحمل الكلمة من معانى.

- **أهمية القيادة:**

لابد للمجتمعات البشرية من قيادة تنظم شئونها وتقيم العدل بينها حتى لقد أمر النبى ﷺ بتعين القائد فى أقل التجمعات حين قال ﷺ «إذا خرج ثلاثة فى ســـفر فليؤمِّروا أحدهم» «رواه أبو داود».

قال الخطابى: إنما أمر بذلك ليكون أمرهم جميعًا، ولا يتفرق بهم الرأى، ولا يقع بينهم الاختلاف.

والحاكم هو النائب عن الأمة ليس المتســـلط عليها، وهو المنفذ لأمرها ليس المســـتبد به، فكل أعماله تقوم على أســـاس تلك النيابة، فما كان داخلاً فى حدودها موافقًا لرأى الأمة، فهـــو صحيـــح واجب الاحترام، ومـــا كان خارجًا عن حدود النيابـــة، أو مهملاً لرأى الأمة فهو باطل بطلانًا لا شك يجعله لا يستحق الاحترام، ولا تجب له الطاعة.

ويقول ابن خلدون فى مقدمته: الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى، فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أن أصول الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

وهذا فيه معنى الاستخلاف فى الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: آية ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٦٥].

والاستخلاف فى الأرض نوعان: استخلاف عام واستخلاف خاص فالاستخلاف العام هو استخلاف البشر فى الأرض باعتبارهم مستعمرين فيها ومسلطين عليها، قال تعالى: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: آية ٦١] وذلك ليقيم فيها سنته، ويظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته، وبدائع حكمته، ومنافع أحكامه، وبدأ هذا الاستخلاف بآدم عليه السلام ومن بعده ذريته.

أما الاستخلاف الخاص، فهو الاستخلاف فى الحكم، وهو نوعان:

استخلاف الدول، واستخلاف الأفراد، وهذا بنوعيه منة أخرى يمن بها الله على من يشاء من عباده أممًا وأفرادًا قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٥].

وإنما يأتى الاستخلاف نتيجة العمل الصالح الذى ينتفع به فى الدنيا والآخرة وليس بالإيمان وحده لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [سورة النور: آية ٥٥].

واستخلاف الأفراد هو الاستخلاف فى الرئاسة، وما استقام المستخلفون فى الأرض على أمر الله فهم عند وعد الله لهم فى تمكين وعزة، يأتيهم رزقهم رغدًا من كل مكان.

شروط الحاكم:

١ – الكفاءة والأمانة، انظر قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة القصص: آية ١٤].

٢ – المسئولية، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الحجر: آيتان ٩٢، ٩٣].

٣ – العدالة المطلقة بين الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [سورة النساء: آية ٥٨].

٤ – تأمين الحرية والكرامة الإنسانية للمواطنين، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥٦].

٥ – التيسير ورفع الحرج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٥].

وفى السياسة الشرعية يمنح ولى الأمر مساحة واسعة للتحرك وفقًا للمصلحة الشرعية، فهذه القضية تحكمها قاعدة (التصرف على الرعية منوط بالمصلحة) والمصلحة فى ذاتها تقييد وليست تخيير، بمعنى أن تصرف ولى الأمر يجب أن يراعى فيه مصلحة الرعية.

ويذكر ابن خلدون: أن مصلحة الرعية فى السلطان من حيث إضافته إليهم، فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية، وهى نسبة بين فئتين، فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم فى أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التى له من حيث إضافته إليهم تسمى الملكة وهى كونه يملكهم، فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة بما كان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه، فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم، وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررًا عليهم وإهلاكًا لهم، ويعود حسن الملكة إلى الرفق.

- **مرتكزات القيادة:**

ترتكز القيادة على أربع عمليات رئيسة وهى:

(أ) تحديد الاتجاه والرؤية، ونظرا لأهمية هذا الموضوع سوف نتناوله فى فصل مستقل.

(ب) حشد القوى تحت هذه الرؤية، قد يساعد فى ذلك أن يكون القائد صاحب كاريزما، وسوف نتناول التحفيز وحشد القوى فى المشروع الحضارى.

(ج) الاستعانة بأهل الخبرة والكفاءة فى تنفيذ الرؤية.

(د) المشورة، وهى ما يسمى بديمقراطية القيادة.

- **خصائص القيادة ومتطلباتها:**

القيادة فى مرادفها سياسة، والسياسة هى الإصلاح والتقويم، فهى عند «العرب» القيام على الشىء بما يصلحه، والحاكم يسوس الرعية أى يصلحها ويقومها.

والسياسة لا تقتصر فقط على المستوى الداخلى وإنما تمتد أيضًا إلى المجتمع الدولى التى تكون فيه الدولة جزء منه تؤثر فيه وتتفاعل به.

«وبعض الناس قد يولدون بقدرات قيادية طبيعية أعظم من غيرهم، ومع ذلك فإن القيادة فى حقيقة الأمر مجموعة من المهارات والفنون المكتسبة التى يمكن تعلمها وتحسينها وهى لهـا العديد مـن المظاهر التى تعبر عنهـا مثل ملكة الرؤية، واكتسـاب المعارف المتنوعة، والإحسـاس بالآخرين ومهارات التعامل معهم والتأثـير فيهم، وهضم الخبرات والتجارب والانضبـاط والقوة الدافعة والطموح والإرادة والمثابرة والتقدير الحكيم للأمور والعاطفة القوية واختيار التوقيت...، وغيرها وبعض هذه المظاهر غير ملموسة ولكنها تلعب دورًا فى مسألة القيـادة، والكثـير من القادة حتى يكونوا فعالين فهـم فى حاجة إلى مزيد من الوقت الذى يمنحهم فرصا أكبر لنضج تبلور المهارات القيادية».

ومـن هنـا فإنه يمكن إبراز الصفـات المتوقعة فى القائد – سـواء كان على رأس الهرم القيـادى أم فى المواقع القيادية المسـاندة، وربما اسـتطعنا أن نسـتخلص منها متطلبات القيادة:

١ – أن يتمتـع القائد بالمبادرة والمبادأة والفاعلية والتأثير، حتى يسـتطيع أن يأخذ بزمام الأمـور، ويكون قادرًا على القيادة من المقدمة، وما يسـتوجبه ذلك من التمتع بالمعرفة والإدراك لحقائق الأمور.

٢ – يجب أن يمتلك القائد الطموح الرؤية البعيدة، فالقائد هو الذى يصنع الرؤية، والرؤية هى فكر القائد ونتاج عقله، وهى الأهداف التى يرغب فى الوصول إليها والتى قد يكون تصورها خطوة تلو الأخرى قبل أن يشـرع فى تنفيذها، وهى قد تمتد لسنوات أو حتى لعقود مستقبلية، ويدرك جيدا ما الذى يتطلبه الأمر للوصول إليها، ومن الذين يعاونوه فى تحقيقها، فبها يعلى مصالح الشعب ويبلور تطلعاته ويستجيب لحاجاته.

٣ – يجـب أن يمتلـك فكـر الأولويات والقدرة علـى التخطيط الاسـتراتيجى، حتى يعرف مـن أين يبدأ، وترتيب مراحل تنفيذ الرؤية برسـم اسـتراتيجيات للمسـارات المختلفة التى يتحـرك فيها بعد أن يدرس الظروف المحيطة الداخلية والخارجية، ثم يبدأ العمل متوقعًا المشـكلات والتحديات، ويشير دائمًا إلى النجاحات التى تتحقق بالتغلب عليها، ثم يراجع خططه بشكل مستمر لتقييمها ويقف على نتائجها، ويعيد النظر فيها إذا تطلب الأمر ذلك، للتأكد أنه يسير على الطريق الصحيح والذى كان قد حدد مساره من قبل.

٤ – أن يمتلك القائد عمق الشخصية ومعرفة وإدراك الحقائق، حتى يستطيع أن يتخذ القرار الذى يتصف بالعمق القيادى والذى يعكس هدف الرؤية، وأن يتصف بالحس والقدرة على أخذ القرارات الحاسمة فى المواقف الخطيرة وبالسرعة المطلوبة.

٥ – المعرفة وسداد الرأى والذكاء السياسى، من شروط سداد الرأى توافر المعرفة، لذا يجب على القائد أن يعرف كيف يقوم بعمله وأن يكون لديه القوة البدنية والقدرة العقلية لإنجاز ذلك، وأن يكون لديه قاعدة معلومات يبنى عليها قراره، وأما الذكاء السياسى به يستطيع القائد أن يخرج من أعتى الأزمات وأشدها تعقيدا بأفضل النتائج، كما يستطيع تقدير العواقب.

٦ – القدرة على التعامل مع الأشياء غير المحسوسة، كالمعنويات التى تدفع شعبه ومرؤوسيه إلى إنجاز ما يطلبه منهم وأن يمتلك قوة الحجة والقدرة على الإقناع، حتى يستطيع توصيل رؤيته وأهدافه وتحفيز الجهود وحشدها كفريق فعال متكامل لتنفيذها، مستعدًا فى كل الأوقات للدفاع عن قراراته متسلحًا بقوة الحجج وسلامة المنطق وسداد الرأى وصحيح المعلومات.

٧ – أن يمتلك الإبداع والقدرة على التطوير وابتكار الحلول من خلاصة خبرته وتجاربه ومعارف اكتسبها وعلمه من التاريخ وعبر ودروس الماضى، يستطيع بهم أن يقتحم العقبات ويغالب الأزمات، وأن يتغلب بكل قوة على الصعاب الكامنة فى طريق تحقيق أهدافه، ويزيل العوائق ويتفادى تكرار الأخطاء ويمهد كل الطرق المؤدية لتحقيق الأهداف، والقائد الحقيقى هو الذى يدرك الأزمات والعقبات المتوقعة قبل وقت طويل من ظهورها فى الأفق، فيحسن التعامل معها، ويستطيع أن يستخرج من شعبه قادة يفوضهم ويعاونوه فى مواجهة تلك الأزمات، ويوكل إليهم القيام ببعض المهام التى يحسنون القيام بها.

٨ – المشاورة، لقد حض الله المؤمنين على التشاور إذ قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة الشورى: آية ٣٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [سورة النمل: آية ٣٢] ولنا فى نبينا محمد ﷺ القدوة فى التشاور، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «ما رأيت أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ».

إن الشـورى الصالحة تسـدد الخطى وتذهب الخطأ، وهى تسـتخرج الأفكار الكبيرة والحلـول المتنوعـة، فالأصـل أن تختلف الآراء، ولكن الشـورى هى الضامـن ألا يتحول اختلاف الآراء إلى خلاف، وهى وسـيلة لصقل المعرفة وتسديد القرار وتوسيع الأفق وتمازج الأهـداف وتوصيل الآراء إلى القادة، وأن تخطئ الجماعة مع الشـورى خير من أن يصيب الفرد بغيرها، فهى عصمة من الوقوع فى الخطأ والاستبداد بالرأى.

٩ – تتطلب القيادة الاسـتعداد الجيد، لأن ذلك هو سـبيل توصيل الثقة للشعب واليقين، فمن خصائص القائد الثقة بالنفس؛ فمن يفقد ثقته بنفسـه يفقد الثقة بالناس، فالقيادة هى عبارة عن مزيج فعال من الرؤية والشـخصية، فللشـخصية دور أساسى فى نهضة وانحدار الأمم، فالشخصية تجعل الثقة ممكنة، والثقة تجعل القيادة ممكنة.

فالشـعوب دائما ما تثق بالقائد ذى الشـخصية القوية السليمة الذى لا يقطع على نفسه وعدا والتزاما إلا إذا كان عازمًا على الوفاء به وهو يحاول دائمًا تجسـيد الاسـتقامة، فهو قدوة ورمز للدولة، يترتب على ذلك ثقة الناس بقدرته على إطلاق طاقتهم وقدراتهم، وهذا لا يعطى لهم فقط أمل فى المستقبل إنما يعزز إيمانهم القوى بأنفسهم ودولتهم.

لذلـك يجب أن يكون القائد بحجم الوطن وعظمته وتاريخه وحضارته وهويته وموقعه، مدرك لتحديات المسئولية، ومشقة السلطة ومعاناتها وعواقب الإخفاق فيها.

١٠ – التفاعل والالتزام، على القائد أن يكون منفتحًا على شعبه مقدرًا لهم، مظهرًا احترامه يشعر بهم؛ ويتعايش معاناتهم، يرفعها عنهم بمساعدتهم، واثقا بهم وبقدراتهم، يعرف آمالهـم وأحلامهم، يحدد لنفسـه ولهم رؤيـة واضحة يتفاعل معها ويلتـزم بها التزامًا لا يقهر؛ لأنه إذا فقد هذا الالتزام والتفاعل فسـيفقد قدرته على الرؤية الصحيحة، غاية هذا الالتزام أن يضيف لشعبه ولوطنه وأمته.

١١ – الشـجاعة والقوة الذاتيـة: القادة الأكفاء قادرون على اقتحـام الصعاب وطرق أبواب المستقبل بكل قوة وعزيمة وإصرار، فهم يفعلون كل ما هو صواب دون تردد حتى تحت وطأة النقد القاسى، فالقائد يستمد قوته من ثقته بربه ثم بوطنه وثبات عزمه ونبل أهدافه.

١٢ – وهو دائما على اسـتعداد لمواجهة أخطائـه والاعتراف بها حتى لو كان ذلك يؤلمه، بـل إن هـذا الاعتراف يزيد من ثقـة تابعيه، وقد يكون نقطة تحـول من الإخفاق إلى النجـاح، فهو يصيـغ الرؤية ويحدد الأهداف ويضع خطط التنفيذ وينتقى الوسـائل، ويأخذ بالأسباب، ويلتمس النتائج من الله.

١٣ – إن القـادة العظام يشـعرون بضرورة مواجهة التحديـات والتغلب على العقبات ونسـف المعوقات وبذل كل ما فى وسـعهم من أجل تحقيق الرقى والريادة والتقدم لشعبهم ودولتهم آخذين فى معتقدهم.. أن القيادة مسـئولية.. الحماس لا يهدأ.. العزيمة لا تلين.. الإبداع ضرورة.. الإخفاق غير مقبول.. الاستسـلام غـير وارد... الالتزام مؤكد... لا رجوع عن بلوغ الغايات... الرقى والريادة والتقدم حتميات... رفعة الأوطان حلم الشعوب، بهذه العقليـة يعتنقون رؤيتهم ويواجهون التحديات عازمين على الوصول بشـعبهم ودولتهم إلى ما يستحقون، لذلك فالأولى للقائد أن يتمتع بعزيمة المحارب الذى لا يعرف سوى النصر، وأن يحول شعبه إلى محاربين لا يألون الجهد فى سبيل تحقق أهدافهم، ويدرك أن الحزم سياج العدل وقسم الرحمة فى سياسة الملك.

معاونو القائد:

القائد هو متخذ القرار، ولكن المعاونون هم من يساعدون القائد فى اتخاذ القرار وتنفيذه، وقـد يفوضون فى اتخاذ القرار فى نطاق عملهـم، فعلى القائد أن يختار من هم أكثر كفاءة وأكثر دراية وخبرة، فالمستشـار هو الذى يُسـأل لكى ينتشـد بعلمـه وخبرته فى مجاله، والـوزراء لابـد أن يكون من صفتهـم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخـبرة بالعلم والعدل بالسياسـة والعفاف، فأمر الدولة لا يسـتقيم بالحاكم وحده وإن كان صالحا، بل لابد من صلاح الوزراء والقيادات والموظفين وعمال الدولة ومراتبها، روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال (إذا ضيعت الأمانة فانتظر السـاعة) قيل يا رسـول الله، وما إضاعتها؟ قال: «إذا وسَـد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» فعلى القائد أن يختار من هو مؤهل وأصلح للعمل الذى يقوم به، وفى هذا السـياق أقترح أن يتم تعيين نائب لرئيس الدولة فى تلك المرحلة الخطرة والحرجة التى تمر بها البلاد، يكون اختياره على أسـاس كفاءته ومهارته وشـخصيته، فإذا كانت شـخصية الرئيس تتمتـع باللين يجب أن يتمتع هو بالشـدة والعكس بالعكس، يسـند له سـلطات ومهام يعاون فيها رئيس الجمهورية فى معالجة قضاياه ومهامه المتشعبة والكثيرة والصعبة ومتابعة تنفيذ رؤيته.

وإذا أراد القائد عمل مصالحه مجتمعية وزرع شـعور داخل المجتمع بالسـلم الداخلى، فعليه بالعدل، فالعدل هو سـياج الدولة الواقى، ودرعها ضد الانهيار، وفى مسـند الإمام «أحمد» ﷺ أنه قال: «أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر»، فالقيادة

مقتضاهـــا العدل والحكمة، والعدل يقتضى الإنصـــاف ورد المظالم، والحكمة مقتضاها وضع الشيء فى موضعه، الشدة فى موضعها واللين فى موضعه.

إن الأعمال العظيمة لا تتم بالقوة، وحدها بل معها العقل والمثابرة والرغبة والإرادة.

«سددوا، وقاربوا، وروحوا، وشيئا من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا» (البخارى).

«إن الحكم إلا لله».

■■■

المفتاح الثانى

الرؤية

فــى هذا المقام لــن أقصد الرؤية التى تحدث أثناء النوم ولكن الذى يشــغلنا هنا الرؤية بمعنى الصورة العقلية التى تصف الحالة المستقبلية المرغوبة.

فقــد يقصد بها الاســتبصار وبعد النظــر، فهى صورة واقعية وقابلة للتصديق لمســتقبل أفضل، وبامتلاكها يمكن للإنسان النظر أبعد مما هو مرئى، فهى إذن من العمليات العقلية العليا ومن أســس النجاح فى التخطيط القيادى عمومًا، فالقائد الناجح هو الذى يضع فى اعتباراتــه كافــة الاحتمالات، قريبها وبعيدها، أطيبها وأســوأها ويعد الخطط لكل موقف حتى يتخذ لكل ما يناسبه دون تردد.

فالرؤية إذن هى: صورة تجمعت أجزاؤها وتبلورت أفكارها وانتسجت خيوطها واكتملت أهدافها فى ذهن القائد يراها ويريدها لشــعبه ووطنه فى المستقبل القريب والبعيد، ولكنها مختلفــة عــن الحاضر الواقع الذى تراه العين، فيظل يقيــس الحاضر على الغائب والواقع على المتوقع المنشود حتى يصل إليها.

وعلــى ذلك فالرؤية هى التطلع الصادق، هــى الأحلام والطموحات المطلوب تحقيقها، هى التقدم و الريادة الواجب تحقيقها والاســتمرار فيها والتى تهدف الدولة للوصول إليها فى المدى الطويل، فهى تسأل دائمًا عن الإمكانيات والموارد والتحديات والطموح، ماذا نريد أن نكــون، الوضــع الــذى نريد أن نصل إليــه بهويتنا وقيمنا وثقافتنــا وحضارتنا، وضع لانهائى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، نتطلع لمرحلة أبعد كلما وصلنا لمرحلة أقرب، وجيل يســلم جيل، وحققنا أهدافًا كانت مرسومة فى الأفق، فى وضع يليق بمصر المتفردة بالموقع والشــعب والتدين والحضارة والتاريخ، ففى تلك الرؤية يتم وضع الأهداف الكبيرة والتصــورات العظيمة للوطن، وإحكام الوســائل والأســاليب وامتلاكها من أجل تنفيذ هذه الرؤية الكبيرة الشاملة.

ورؤية المسلمين بشكل عام هى تحقيق العبودية لله فى الأرض واستخلافهم فيها وتعميرها وتحقيق الوســطية والعدل، فرسالة الإسلام ذات أهداف وغايات نبيلة للعالم أجمع، فهذا

هو مناط الخيرية للمسلمين، والقيادة لأمم الأرض تحت راية منهج الله تعالى، تلك المكانة وهذه المنزلة التى أوجبها عز وجل على أمتنا يوم أن قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة: آية ١٤٢].

ولقد كان رسول الله ﷺ يتحلى بمزية بعد النظر والاستبصار كقائد فى شتى أعماله، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها:

لقد أصر رسول الله ﷺ على قبول صلح الحديبية، لأنه فكر بعمق وبُعد نظر، فعرف بفكره الثاقب أن قبول هذه الشروط نصر للمسلمين، فهى تؤمن الاستقرار وفى ظل هذا الاستقرار أصبح جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل عند فتحه مكة، بعد أن كانت جميع الدلائل تبشر باستسلام قريش يوم الفتح، ومع ذلك اتخذ الرسول ﷺ كافة التدابير الممكنة لمعالجة أسوأ الاحتمالات ومواجهتها، فقسم قواته إلى أربعة تشكيلات، ودخل مكة من جهاتها الأربع بتشكيلات القتال حتى تستطيع قواته القضاء على كل مقاومة بكل سهولة دون أن تباغت من جهة غير متوقعة.

ولقد كان الرسول ﷺ يفكر فى كل صغيرة وكبيرة ويعد لكل أمر عدته ويلزم الحيطة والحذر؛ ولذلك لم يستطع أعداؤه أن يباغتوه فى أى وقت بينما استطاع هو أن يباغتهم فى أكثر من غزوة، والأمثلة على تمتع الرسول ﷺ بالبصيرة والرؤية كثيرة ولما لا وهو أعظم قائد فى البشرية، ولكن لا يسعنا المقام هنا لذكرها جميعها.

وتحدد الرؤية على أساس الآتى:

أولاً:- فهم الواقع الداخلى والوضع الخارجى والمتغيرات العالمية.

ثانيًا:- القيم والثقافة السائدة للشعب والموروث الحضارى.

ثالثًا:- الموارد والثروات والإمكانيات.

رابعًا:- العقبات والمشاكل والتحديات.

والرؤية تفقد مضمونها إذا لم ترتبط بخطة عمل وأهداف واضحة المعالم وقابلة للتنفيذ وإن كانت تنطوى على صعوبة فى تنفيذها، مع تقييم المردود ووضع المؤشرات حتى تكون الرؤية مرتبطة بالتنمية الإقليمية والاستراتيجية والتنمية المتزنة المستدامة، وإن نجاح تلك الرؤية يتم بتوعية المسئولين لوضع تصورات مستقبلية - كل فى تخصصه - مبنية على أسس وخطط وبدائل استراتيجية للنمو المستقبلى لكل حقبة زمنية قادمة، ويكون لكل منها اسم تصبو إليه يعكس الأهداف المرجوة لكل حقبة.

ولقد أشرنا أن الرؤية العامة هى فكر القائد ونتاج عقله، فهو الذى يقود التيار النهضوى الشامل، الذى ينزل إلى المجتمع فى أفق إصلاحى شامل بغرض تأهيل وإعداد هذا المجتمع، لتحمل مسئولية المشاركة الفعالة فى المشروع الحضارى، ولا يكون ذلك إلا من خلال إصلاح المنظومة الدينية والعلمية والفن والأدب وبناء الاقتصاد والإعلام فى رؤية متكاملة، عنوانها صناعة المصرى الفعال.

- **خصائص الرؤية الجيدة:**

١ – أنها صورة للمستقبل الذى يمكن للآخرين أن يتخيلوه، حيث يحتويها عنصر الخيال.
٢ – أنها تجسد الآمال والأحلام والطموح فى مستقبل أكثر إشراقًا للمعنيين بها.
٣ – توفر المرونة فيما يتصل بأسلوب تحقيقها، بمعنى أنها قابلة للتحقيق، ومع ذلك تستلزم قدرًا مناسبًا من التحدى، فيتم لها شحذ الهمم.
٤ – تحقق المصالح طويلة المدى لمن تكون موجهة لهم حتى إذا كانت تعنى المعاناة على المدى القصير، ولكنها إيجابية تعمق الإحساس بالانتماء الوطنى.
٥ – تتسم بالشمولية واتساع الأفق.
٦ – بها قدر من الصعوبة فى التنفيذ ولكنها ممكنة بالإرادة والعزيمة والإصرار وخلق روح المنافسة والمبادرة والإبداع.
٧ – عظم الرؤية يأتى من عظمة الفائدة المحققة منها واتساعها لشمول جميع الفئات.
٨ – تصاغ بطريقة سهلة ومحفزه، حتى يتم توصيلها وفهمها، يستطيع أن يستوعبها جميع أفراد الشعب تعزز تفاؤلهم بالقائد والمستقبل، تصل إلى قلوب وعقول الشعب فيقتنع بها ويتبناها، فتتحول من رؤية القائد للدولة إلى رؤية الشعب لنفسه ووطنه، فيتصورها ويتفاعل معها ويعمل بها ولأجلها.

وعلى ذلك فإن وضع تصور للرؤية المستقبلية يتم بعد تضافر ثلاثة عوامل أساسية وهى:

أولا: المواطن:

هل لدينا فريق عمل يستطيع أن نعتمد عليه فى تحقيق الرؤية، وما مدى إنتاجيته؟ فالمواطن المصرى هو الأساس الأول فى تحقيق التنمية والإسهام فى نجاحها، فهو جزء من الرؤية التنموية والمستفيد الأول من تنفيذها.

ثانيًا: المقومات والموارد:

بنية أساسية ممهدة واستقرار أمنى على المستوى الداخلى والخارجى ومرافق على مستوى عالٍ من التميز فى الأداء، وبيئة تشريعية وقانونية محفزة وسليمة.. ومراكز علمية متطورة، ومؤسسات فاعلة، وموارد للدخل مثل السياحة وقناة السويس، والموقع، والصحارى..، وغيرها الكثير.

ثالثًا: قاعدة المعلومات والبحث العلمى:

إن الرؤية والتخطيط لتنفيذها لتنميه الدولة وصنع التقدم تستلزم ضرورة وجود قاعدة للمعلومات يعتمد عليها وتوحيدها وكذلك الإحصاءات، هذا بجانب تطوير البحث العلمى والاعتماد عليه.

هذه العوامل الثلاثة تعمل تحت نظام مؤسسى سياسى واجتماعى وقانونى تشريعى شامل متكامل ومترابط له مؤشرات سياسية واجتماعية واقتصادية تعكس النتائج المحققة فى تلك المجالات، والقدرة على فهم المتغيرات التى تؤثر فيها، وتوفر له الحماية القانونية الصارمة على القوى والضعيف، وتضمن للدولة هيبتها، وكل ذلك يعزز الثقة فى الدولة ويؤكد مبادئ الشفافية، ويتم هذا فى إطار من التفاهم والثقة بحتمية العمل على تكريس الوفاق القومى، ويمكن القول بأن ذلك يتأتى من خلال:

١ – عزيمة سياسية بعيدة عن التعصب الحزبى، تتفق على أسس التطور وسبل التقدم، وتكون مؤهلة لقبول التحدى بنظرة مستقبلية تحدوها الوطنية والإيمان، على أن تكون على وعى كامل وتنظيم فائق، وأداء شفاف، وقدرة على تعديل هيكلى للمسار عند ظهور أى عوائق.

٢ – تحليل مسببات التدهور، مع مواجهة المشاكل من جذورها عند حدوثها بأسلوب علمى.

٣ – الاهتمام والتركيز على إعداد الفرد وتنمية قدراته والحفاظ عليه وحل مشكلاته، واستمرار رفع مستواه بالتنمية البشرية المدروسة.

٤ – الربط بين المنظومات الحاكمة للتطور فى توازن مقبول وعلى سبيل المثال التوازن بين منظومة السلوك الاجتماعى (المرتبطة بالأصول السلوكية السليمة والدين والحق)

ثم منظومة الحكم (التى تيسر الجرعة السليمة والمتزايدة من الحرية والديمقراطية والعدل وانتظـام الإدارة كل ذلـك بالتدرج فى ظل الحفاظ على الأمن بصفة عامة، مما ينعكس أثره فى النهاية على الإنتاجية).

٥ – التركيـز على منظومة تنمية القدرات البشـرية بداية من التعليـم والتدريب والبحث العلمى وكذلك حسـن توجيه واستغلال وتشـغيل الرصيد البشرى المتاح محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا التابع للدولة والعمل على إذكاء الأمل فى المستقبل بإذن الله.

٦ – الابتعـاد عن الخلافات السياسـية والتحديات العقائدية المُختلـف عليها والبعد عن مسارب الخطأ، حتى تكون الحلول نابعة عن رغبة صادقة ووحدة قومية وفكرية قائمة على أسـس علمية حيث يتصور فى تلك الرؤية العامـة كيف تكون مصر دولة متقدمة متحضرة وقائدة فى ظل عالم سـريع التغير والتطـور معتمدًا فى ذلك على الإمكانيات والموارد التى تتمتع بها مصر والمصريين ثم وضع اسـتراتيجية عامة لتطبيق هذه الرؤية ووضعهـا موضع التنفيذ يتفرع عنها اسـتراتيجيات فرعية فى مختلف جوانب حياتنا السياسـية والاجتماعية والاقتصادية وإعادة بناء الجهاز الإدارى حتى يتسنى له مهمة النهـوض بالبلاد هذه الاسـتراتيجية العامة قوامها الاعتماد علـى الإمكانيات الذاتية والتكامـل العربى والتعاون الإفريقى وفكر الأولويات والبناء على أسـس علمية حديثة والإلمـام المتعمق للواقع الحالى للمجتمع المصرى وما يعانيه من مشـكلات لتحقيق نقاط الانطـلاق من الواقعية التـى تمضى فيها لتحقيق الرؤية المسـتقبلية، ثم يراقب القائد مدى صلاحية هذه الاستراتيجيات فى تطبيقاتها على أرض الواقع وملاءمتها للظروف وما يطرأ من مستجدات والتغيرات العالمية حتى يواكب التقدم العالمى.

ومن هنا فإن هذه الرؤية الاستراتيجية واضحة المسار للتقدم المنشود ترتكز على الآتى:

أولا: الثوابت الراسخة:

وهى التى تضبط مسار المشروع بكامله، هذه الثوابت تمثل الأرضية الصلبة لمشروع التقدم والذى ينطلق منها فى مساره بأكمله وتتمثل فى:

١ – الحفـاظ علـى الهوية الفكرية والثقافية للمجتمع المصـرى وقيمه الدينية وتلاحمه فى نسيج واحد متكامل.

٢ – الحفاظ على مصر كدولة لها معالم وحدود واضحة ذات سيادة مستقلة.

٣ – مد أواصر التعاون والتكامل العربى والإسلامى.
٤ – مد أواصر التعاون الإفريقى.
٥ – إقامة علاقات متوازنة مع جميع دول العالم.
٦ – هذه المنظومة المتكاملة فوق أنها تضبط مشروع التقدم فى إطار عام إلا أنها تعطى مرونة كبيرة لتيار التقدم فى التعامل مع مقتضيات الواقع وتغيراته المستمرة.

ثانيًا: بداية المسار العملى للرؤية:

إن تحقيق الرؤية يتوقف على الإنسان المصرى وأصعب بناء هو بناء الإنسان، فإذا ما تم بناء الإنسان المصرى القادر الفعال سهل علينا بناء الدولة وصنع الحضارة، ومن هنا فإن المسار العملى يبدأ بالأتى:

(أ) نشر الفكر التقدمى:

وتبدأ هذه المرحلة بنشر الفكر الهادف للتقدم على كافة المستويات، وبالوسائل المختلفة، من كتب وبرامج وصحافة وجميع وسائل الإعلام وغيرها حتى يتسنى للمشروع الحضارى من أن تتبناه النخبة القوية القادرة على بناء أركانه، وإقناع الجماهير به والمضى قدما فى تنفيذ مراحله، وتلك النخبة تنبت فى نفس الوقت من هذا المجتمع، وتؤمن بضرورة بنائه وإعادة تأهيله، واستخراج مواطن قوته والتخلص من سلبياته ليكون فاعلا حريصا على التقدم وصنع الحضارة ليكون لكل فرد من أفراد المجتمع نصيبا فى المشروع الحضارى كل ذلك تحت رؤية نهضوية مشتركة، وشىء من التنسيق والترتيب فى تكامل تلقائى للأعمال والأدوار، ليعيش المجتمع ويموج فى تلك الأفكار الهادفة للتقدم.

(ب) إصلاح شامل متكامل الأركان:

ويتم ذلك من خلال وضع رؤية شامله لجوانب الإصلاح المجتمعى فى الدولة، لا ترتكز على جانب فيما تعانى البقية الأخرى من الإهمال والتهميش فهو إصلاح متكامل الأركان والأسس تتضح ملامحه فى ثلاث منظومات رئيسة:

١ – إصلاح المنظومة الإيمانية: لقد تعرض البعض من الشعب المصرى إلى تخريب فى وطنيته ودينه وقيمه، فأصبحت الحاجة شديدة إلى إصلاح المنظومة الإيمانية التى من خلالها يعود المجتمع ويتصالح مع نفسه ودينه وربه ووطنه، فيتم إعادة صياغة العلاقات لتكون عاصمة من كثير من الفساد والفتن التى تذهب بالمجتمعات، وأساسًا متينًا تقوم عليه

ركائز الحضارة المحاطة والمشـمولة بعناية الرب جل وعلا، فيكون بذلك الرابط بين الدين والدنيا فى طريق واحد، يعد الناس بخير الدنيا وجنة الآخرة فيجتمع الخيران، ولنا أسوة فـى نبينا محمـد ﷺ مع مجتمعه حين قال لأهل مكة: «يأيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم»[1]

٢ – إصـلاح منظومـة القيم والأخـلاق: وبها ينصلح حال أفـراد المجتمع الواحد بحيث يقـترب أو يكاد من النموذج الذى غير وجه التاريخ من قبل، وحول دفة وقيادة العالم مـن الفـرس والروم إلى حيث لم يكن يتخيل أحد، إلى بـلاد العرب التى كانت محلاً للجهالة والصراعات الداخلية فباتت مصدرًا لخير الأمم.

ومن خلال هذه المنظومة نرسـى فى المجتمع قيم الإسـلام التى هـى فى حقيقتها قيم الحضارة، التى تحفظها وتقربها وتقيم دعائمها على أسس راسخة قوية من العدل والشورى، والمسـاواة والجدية وحب العمل والإنتـاج[2] وإبراز حقيقة مصر كدولة متدينة عبر تاريخها العريق ومتناغمة وملتحمة فى نسيج واحد بها يعيش المسيحى بجانب المسلم فى أمان تام.

٣ – إصـلاح منظومة الفاعلية: هذه المنظومة التى تسـتمد أصولها ونبعها مما سـبقها من منظومتى الإيمان والأخلاق، لتعلى من قيمة الوقت والعمل والإنتاج وتزحزح السـلبية والإهمال والتكاسل جانبًا وتقضى على التخلف والتبعية.

أمـا عن الإنتاجيـة فهى القدرة على النمـو والتطور المادى، من خـلال تحقيق أقصى إنتـاج ممكن، باسـتخدام الموارد المتاحة أفضل اسـتخدام ويتم ذلك من خلال تشـريعات سلسة وتوفير بيئة آمنة مستقرة ومؤسسات فاعلة وصناعة المصرى الفعال الذى يمثل العينة النموذجية لمجتمع حضارى قادر على أخذ مصر إلى مكانها القيادى فى ظل موازين القوى العالمية الحالية منها المعادية والمؤيدة لمصر.

وعلى ذلك فإن الإصلاح الحقيقى للمجتمع يتم من خلال تكامل هذه المنظومات الثلاث والتى تتداخل مع بعضها فى الأثر والنتائج كما تتفاعل سلبا أو إيجابا.

(ج) إعادة إنتاج الشخصية المصرية:

من خلال الإصلاح الشـامل للمنظومات القيمية السابقة يمكن بالمنهج التربوى الواضح، صناعة الشـخصية المصرية القادرة على المسـاهمة الفعالة فى مشروع البناء المصرى والمضى قدمًا فى تحقيق المشروع الحضارى، ولكى يتم ذلك لابد من العمل على تنمية الآفاق الآتية:

(١) زاد المعاد – لابن القيم.

(٢) نهضة أمة – هشام مصطفى عبد العزيز.

١ – الأفق العلمى والأخلاقى: من خلال حيازة الأفكار السليمة والإبداع والتفكير العلمى، والتحلى بقيم الانضباط والالتزام بالدين والأخلاق والقيم.

٢ – الأفق الإدارى الواقعى: والذى من خلاله يمكن للمصرى أن يحسن استخدام موارده، وثرواته ومؤسساته وتنفيذ خططه وأهدافه وبرامجه النهضوية بأقصى درجات الفاعلية والإنتاج.

٣ – الأفق الاستراتيجى: يتم من خلاله تنمية القدرة على التخطيط والترتيب للمستقبل بشكل منظم فعال وهو يولد رؤية مستقبلية لدى المصرى ويمكنه من قراءة واقعه قراءة صحيحة تمكنه من التنافس على الإبداع والابتكار وطرق أبواب المستقبل وحماية مشروعه الحضارى من التهديدات الاستراتيجية، فى ظل عالم شديد التنافس وأوضاع سريعة التغير.

(د) تواصل الإصلاح وتراكمه:

ويقتضى ذلك الحكمة والتدرج المُتقن، وإتباع سياسة النفس الطويل واختيار التوقيت المناسب فى تنفيذ استراتيجيات الرؤية لمشروع التقدم، فهو إصلاح تراكمى عبر أجيال وأجيال فى تتابع استراتيجى مدروس، هو وحدة الاستراتيجية الناجحة فى التعامل مع هذا الواقع الصعب الذى تعيشه الدولة ذلك أننا نحتاج إلى إصلاح حضارى شامل والثمرات الحضارية تحتاج إلى زمن لكى تنضج أى أنها جزء من التاريخ أو نتاج جانبى للتاريخ، «وكما أن ثمر الزروع والأشجار لا ينضج إلا بفعل الزمن، إذا لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما فى نفس الوقت، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان فتحقيق الرؤية يعتمد على نظرية العمل الكادح وزرع ذلك فى نفوس أبنائنا لخلق مخزون القوى العاملة المؤهلة لدينا»، ومع ذلك فمصر الآن على أعتاب مرحلة الصحوة وأعتقد أنها تجاوزت مرحلة اليقظة إلا فئة قليلة، و شعب مصر مؤهل للعمل والإبداع بشرط وجود قياده تحفزه وتربط على كتفه وتخلق من ضميره وازع يحثه على الالتزام، كل ذلك من شأنه التقليل من الوقت المستهلك فى التقدم الحضارى، فإذا ما سلكنا طريقنا الصحيح وصلنا إلى هدفنا المنشود وأصبح لنا ما يميزنا وهو تجربتنا المصرية الرائدة وأخذنا مكاننا الحقيقى بين الدول.

أما عن أول طريق الإصلاح فهو فرض القانون وإلزام الجميع فى مصر ـ دون استثناء من أى طبيعة كان ـ بالخضوع لأحكامه.

إن الرؤية المستقبلية الشاملة، هى سبيلنا لوضع الاستراتيجية العامة لبناء حياتنا الجديدة، وإرساء الاستراتيجيات الخاصة فى كل مجال من مجالات النشاط البشرى، بحيث تضمن عدم ظهور التناقض بين هذه الاستراتيجيات العامة لإعادة البناء.

وإذا أرادت مصر أن تكون دولة قائدة وبحق فيجب عليها أن تخطط لمستقبلها القريب والبعيد ومستقبل الأمة العربية والإسلامية، بل مستقبل العالم، وتمهد لهذا التخطيط وتعد الخطط وتقيم المنشآت، فتمتلك أسباب ووسائل تنفيذ الخطط والتغلب على المخاطر ومواجهة التحديات والعقبات، تخطط اليوم وتنفذ بما يتناسب مع متطلبات المرحلة ومعطياتها ومسابقة الزمن، ثم تسليم الراية لعقول الغد لتستكمل البناء والتنفيذ وتطوير الخطط من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

والرؤية الحقيقية والتى تناسب دولة بحجم مصر وتنطبق عليها، أن تكون قائدة العالم لا أقل من ذلك، فهى تمتلك المؤهلات والقدرات، وحتى يمكن ذلك يجب أن تكون دولة قادرة على الحل والعقد، ولن يتسنى لها ذلك إلا بعد أن تمتلك قوتها بأيدى أبنائها وتتخلص من الاعتماد على المنح (القروض والمعونات) فيجب أن تمتلك بجانب ما امتلكته من موقع يتوسط العالم ورسالة وحضارة وتاريخ ودفاع عن الأمة العربية والإسلامية، أن تمتلك العلم والاقتصاد، فحقيقة القيادة هى الحل والعقد وحقيقة الحل والعقد لمن يمتلك القدرة عليه.

■■■

المفتاح الثالث

مصر بين الموقع والهوية

لقد أطلق اسم مصر على المنطقة التى تضم حوض النيل الأدنى، أى المنطقة الممتدة من النوبة جنوبًا حتى البحر المتوسط شمالا ومن البحر الأحمر شرقًا حتى الأراضى الليبية غربًا، وهذه المنطقة كانت مشوار نهر النيل الذى بدأ مسيرته من قلب إفريقيا من منطقة البحيرات العظمى حتى يصل إلى قلب السودان الشمالى حيث تتدفق فى شريانه الرئيس مياه الروافد الحبشية التى استمدت مياهها من الأمطار.. ثم يبدأ النهر فى الاستقرار بعد أن يجتاز منطقة الجنادل وجنوب أسوان ويستمر كذلك إلى أن يبلغ مصبيه على البحر المتوسط [1].

ومصر من المناطق القليلة فى العالم التى حافظت على اسمها طوال مراحل تاريخها، أى أن اسم مصر ظل علمًا على هذه المنطقة دون تغيير.. ولكن كيف أطلق عليها اسم مصر..؟

هناك آراء متعددة منها ما قاله العرب من أن هذه المنطقة سميت باسم مصر قبل الطوفان «طوفان نوح» عندما نزلها نقراوس بن مصرايم بن دواييل بن غبريال بن آدم عليه السلام.

وقد أسماها نقراوس على اسم أبيه «مصراى» تكريمًا له وتعبيرًا عن تقديره وحبه له بينما يرمى آخرون أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى مصر بن بنصر بن حام بن نوح الذى نزلها بعد الطوفان.

وقد عرفت مصر فى العهد الفرعونى بأسماء منها «كيمبيت» وتعنى الأرض السوداء وتمييزًا لها عن الأراضى الصحراوية الصفراء والجبلية الحمراء

«وثيميرا»» أو «ثاميرا» وتعنى أيضًا: الأرض السمراء الخصبة.

ومن الأسماء التى أطلقت على مصر وعلى مدينة ممفيس "هيكوبيتاح" أو كوبتاح، أى قصر أو منزل أو أرض الإله بتاح، ومن هذه الكلمة اشتق اليونانيون Aigyptus، ومنها اشتق اسم مصر الحالى Egypt وكلمة مصر تعنى البلاد التى على الحدود، البلاد الوفيرة الخيرات وتعنى الحضر.

---

(١) د/ جمال حمدان – شخصية مصر.

لقد سميت مصر بذلك لأنها كل ذلك، بل والأكثر من ذلك أنها البلد والأرض التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم.

ويقول الدكتور جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر».

وهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا لكنها تمت إلى آسيا بالتاريخ، وهى متوسطية دون مدارية بعروضها وموسمية دائمة بمياهها، هى فى الصحراء وليست منها إنها واحة شبه صحراوية، بل ليست بواحة، إنما شبه واحة، هى فرعونية الجد وإنما عربية الأب، ثم إنها بجسمها النهرى قوة بر، ولكنها بسواحلها قوة بحر وتضع بذلك قدمًا فى الأرض وقدمًا فى الماء.. وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقًا أقل من قوى. ولكنها برسالتها التاريخية الطموحة تحمل رأسًا أكثر من ضخم.. وهى بموقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب تقع فى الأول ولكنها تواجه الثانى، وتكاد تراه عبر المتوسط، كما تمد يدًا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب، وهى توشك بعد هذا كله أن تكون مركزًا مشتركًا لثلاث دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعًا لعوالم شتى، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الإفريقى.

وإذا كان لهذا كله مغزى، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما هى تجمع بين أطراف متعددة وغنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية، بين أبعاد وآفاق واسعة، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى» تجعلها أمة وسطًا بكل معنى الكلمة، بكل معنى الوسط الذهبى، ولكن ليس أمة نصفًا! وسط فى الموقع والدور الحضارى والتاريخى، فى الموارد والطاقة، فى السياسة والحرب، فى النظرة والتفكير.. إلخ ومصر لا يمكن أن تحكم أو تدار كعدة وحدات مستقلة نظرًا لتركيبها الداخلى والخارجى الذى يعطيها كيانًا موحدًا.

والواقع أن مصر سبقت العالم فهى أول دولة سياسية وهى أول دولة حافظت على وحدتها القومية عبر التاريخ، ومصر بحكم موقعها وموضعها أصبحت مخلوقة للحياد الإيجابى، فالمبادئ لا المصالح بوصلة مصر وسلاحها الذى يحقق شخصيتها الكائنة مثلما يعبر عنها، فرسالتها الحياد الإيجابى.

وموقع مصر من العالم هو موقع القلب من الجسم أو العاصمة من الدولة، وإنها حجز الزاوية وأرض الركن، ومجمع القارات ومفرق البحار، وملتقى الشرق والغرب....إلخ،

فمصر تحل مكانًا وسطًا بين خطوط الطول والعرض، بين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج بين القارات والمحيطات حتى بين الأجناس والسلالات والحضارة والثقافات، فنحن أمة وسط متعددة الجوانب والأبعاد والآفاق، مما يثرى الشخصية الإقليمية والتاريخية ويبرز عبقرية المكان فيها.

أما عن المصريين، فمصر منذ فجر التاريخ وحدة واحدة متجانسة بقوة فى الأصل والصفات والملامح، على الرغم ما مر بها من غزوات حربية، فهى لم تتعرض لهجرات حقيقية إلا من الهجرات العربية التى استقرت فى ريف ومدن مصر، وبذلك كتب لمصر التعريب فكلاهما أقارب جنسيًا منذ ما قبل الإسلام، بل وما قبل التاريخ، فالاختلاط الجنسى المصرى العربى كان فى حقيقة الأمر زواج بين أقارب بعيدين، فإن هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل أبى العرب مصرية من قرية كان يقال لها أم العرب وهى قرية فى شمال مصر على بعد ثلاثة كيلو مترات من الساحل الشمالى وتعرف آثارها «بتل الفرما».

فشعب مصر شعب واحد بكل المقاييس، فبحكم الواقع امتزج مع أجناس أخرى وشعوب أخرى، ولكن كون من كل ذلك وحدة بشرية متجانسة اصطبغت«بالصبغة المصرية»، شاركت فى كافة ألوان النشاط الإنسانى، وحقق فى ذلك إنجازات تاريخية تشهد بها الحضارة الإنسانية فى مراحلها المختلفة.

أما عن اللهجة المصرية، كانت دائما أقرب لهجة عربية إلى الاستقامة والاعتدال، ومحاسية مصر للإسلام بلغت من الرصانة والاستواء جعلت من أزهارها قلعة للإسلام وكعبة للإسلاميات.

- **مصر شرفها الله وحفظها:**

ما أعظم أن تذكر مصر، ويخلد ذكرها فى أعظم كتاب سماوى هو «القرآن الكريم».

وما أطيب أن يتعبد بذكرها بتلاوته فى الصلاة وفى غيرها!!

فهذه من النعم التى أنعم الله بها على أرض مصر وعلى شعبها وما أكرم أن يوصى بها خير خلق الله محمد ﷺ فى أحاديث، ويحث على إكرام أهلها، ويصفهم بصفات كريمة وخصالا حميدة ورجولة عظيمة.

١ – عندما يذكر فى كتاب الله أن الله تكلم مع نبى كريم على الأرض فيكون ذلك فى مصر﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٤٣]

٢ – عندما يوافق القرآن الكريم على أن تكون البيوت قبلة للصلاة، ويكون ذلك على أرض مصر قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: آية ٨٧].

٣ ــ وعندما يصرح فى القرآن الكريم بوجود الأمن والأمان فيكون ذلك على أرض مصر: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: آية ٩٩].

٤ – وعندما تذكر كلمة (الأرض) فى القرآن الكريم فيكون المقصود بها، (أرض مصر) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف: آية ٢١].

٥ – وعندما يصرح القرآن الكريم باسم مكان ويخصه بالذكر، فيكون اسم مصر ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١].

٦ – وعندما يذكر أن أحد مكن له فى الأرض فيكون المقصود بهذه الأرض أنها مصر ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة يوسف: آية ٢١].

٧ – وعندما يذكر أن أرض يكرم فيها الضيف ويحسن إليه ويكرم مثواه فيكون المقصود بها أنها أرض مصر ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [سورة يوسف: آية ٢١].

٨ – وعندما يخص الله نباتًا بالذكر وتعدد فوائده وبركاته «الزيتون» فيكون ذلك موطنه (أرض مصر) ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾. [سورة المؤمنون: آية ٢٠].

٩ – وعندما يذكر القرآن مكانا مقدساً ويخصه بالذكر فيكون: «طور سيناء» على أرض مصر: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾[سورة المؤمنون: آية ٢٠]. ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة التين: الآيتان ١، ٢].

١٠ – وعندما يذكر أن أحدًا استجار بأحد وأجاره ونصره وأعانه فيكون ذلك على أرض مصر ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [سورة القصص: آية ١٥].

١١ – وعندما يذكر القرآن الكريم أن رجلاً صالحًا ينصح لله فيكون ذلك على أرض مصر ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [سورة القصص: آية ٢٠].

١٢ – وعندما يذكر القرآن الكريم أن حاكمًا يفتخر بأنه يحكم، فيكون ذلك على أرض مصر ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: آية ٥١].

١٣ – وعندما يذكر ربنا – تبارك وتعالى – بأحسن القصص فتكون وقعت على أرض مصر، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [سورة يوسف: آية ٣].

١٤ – وعندما يذكر القرآن أن بلدًا كانت سلة الغذاء للعالم تكون مصر ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يوسف: آية ٥٥]، فمصر هى خزائن الأرض لغناها ووفرة ما فيها وثرواتها لما حباها الله به من اعتدال الجو وخصوبة التربة وسخاء الزرع وغناها بما فى باطن أرضها.

١٥ – وعندما يذكر القرآن الكريم أن أرضاً وصفت بمقام كريم، فتكون أرض مصر ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: آية ٥٨]. ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة الدخان: آية ٢٦].

لقد ذكرت مصر فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم هذه بعضها، كما لم تكرم أرض بمثل ما كرمت به مصر من نزول الأنبياء بها وولادة بعضهم على أرضها.

وعندما يذكر أن أنبياء الله ورسله نجد ثلاثة من أولى العزم من الرسل نزلوا أرض مصر وعاشوا بها فترة من الزمن.

فعلى أرض مصر الجنات المثمرة الجميلة الطيبة، عيون الماء الجارية الظاهرة، كنوز الأرض (ذهب وفضة ومعادن)، المكان والمقام الكريم، ومبوأ الصدق، وعلى أرض مصر ينصر المظلوم وأعظم مناجاة وقعت على أرض مصر، وشرفها الله تعالى بالقسم بها بوجود الزيتون على أرضها وبطور سيناء، وعلى أرض مصر تفهم حقيقة العبودية ويعرف المعنى الحقيقى للاستخلاف، ويكرم زائريها، ويعم الرخاء والعز والتمكين، وينعم الطريد بحق اللجوء، يستأذن الحاكم من أصحاب الأرض، ففى مصر تعرف طبائع الشعوب، هكذا تحدث عنها القرآن الكريم.

فعلى أرضها سار الأنبياء والصالحون، فلقمان الحكيم مصرى من أهل النوبة، فمن بركتهم بوركت مصر ومن طهرهم أصبحت مصر طاهرة على مر الزمان حيث كان بها إبراهيم خليل الرحمن، وإسماعيل، وإدريس، ويعقوب، ويوسف، واثنا عشر سبطًا.

وولد بها موسى، وهارون، ويوشع بن نون، ودانيال، وأوربا، ولقمان، ومؤمن آل فرعون، والخضر، آسية إمرأه فرعون، وأم إسحاق، ومريم ابنة عمران، وماشطة بنت فرعون.

ومن مصر: تزوج إبراهيم الخليل بأمنا هاجر أم إسماعيل – عليهم السلام – وتزوج يوسف – عليه السلام – من مصر، ومنها أهدى المقوقس عظيم مصر مارية القبطية وتزوجها رسول الله ﷺ.

– ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب قدمت مصر لتلحق بزوجها عبد العزيز بن مروان، وعاشت بها إلى أن ماتت.

– عبد الرحمن بن هرمز (تابعى جليل قدم إلى مصر فى أواخر حياته وسكن الإسكندرية إلى أن مات ودفن بها)، هذا بالإضافة إلى الكثير من الصحابة والتابعين الذين ماتوا ودُفنوا بأرضها[1].

الرسول الكريم ﷺ وموقفه من مصر وأهلها:

قال رسول الله ﷺ «ستفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم ذمة ورحمًا» رواه مسلم.

وقال أيضا: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض» قال أبو بكر لما يا رسول الله؟ قال «لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة» رواه مسلم. وكأن رسول الله ﷺ يؤكد بأن الفتح الأعظم للإسلام بمصر ومن مصر وكأن ذلك أيضا أمر من رسول الله ﷺ بأن يكون معظم جند الإسلام من أبناء مصر (لأنهم خير أجناد الأرض) هكذا وصفهم من لا ينطق عن الهوى، وما ذلك إلا لحسن معتقداتهم، وقوة إيمانهم ومن حسن تفانيهم فى الدفاع عن أرضهم ودينهم وترابطهم ووحدتهم، ولذلك فهم مختلفون عن كثير من غيرهم بحكم وما وقر فى قلوبهم من إيمان وتقوى واعتقاد فطرى بأنهم أصحاب رسالة سامية وهم مطالبون بالدفاع والذود عنها.

وعندما تقرأ قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الفتح: آية ٧]. ويخبرنا رسول الله ﷺ «أن جند مصر خير أجناد الأرض» فعلينا أن نسأل أنفسنا: أين جند الله فى الأرض إن لم يكونوا فى مصر؟!

(١) مصر شرفها الله – إبراهيم الشناوى.

وهذه خاصية أخرى لمصر، ففيها جند الله فى أرضه وأنهم فى رباط دائم إلى يوم القيامة، قلوبهم جميعًا فى وجهة واحدة إلى الحق تعالى، يربطهم رباط واحد هو حبل الله المتين، وهو العروة الوثقى للمستمسكين والمعتصمين بها فيكون لهم درءا عن أى فرقة أو أى ضعف، ويصبح لهم حرما للأمن والأمان من أى سوء.

وإذا ربطنا بما عرف عن مصر من كونها (كنانة الله فى أرضه) من أرادها بسوء قصمه الله، وإذا علمنا أن الكنانة هى جعبة السهام للمحارب، لأدركنا أن مصر بها سهام الحق الموجهة بأيدى أبنائها – دعاه الحق وخير أجناد الأرض المرابطين للذود عن الإسلام ومقدساته إلى يوم القيامة – إلى صدور أعداء الله، وأعداء الإسلام على الدوام والاستمرار، ولقد أثبتت أحداث التاريخ ذلك، فقد كانت مصر هى المتصدية للغزوات الصليبية فى المنصورة وحطين، كما كانت المتصدية للغزوة التترية الهمجية، والتى قهرت التتار فى عين جالوت بعد أن استولوا على معظم آسيا الوسطى واحتلوا العراق والشام وأتوا إلى مصر إلا أن جند مصر بقيادة سيف الدين قطز، هم الذين ردوا هؤلاء الغزاة ودحروهم إلى غير رجعة، كما كانت مصر ولا زالت هى المتصدية للغزوة الصهيونية الشرسة التى تستهدف تقويض دعائم المجتمعات العربية والإسلامية ولإدراك أعداء الإسلام وأعداء مصر هذه الخصوصية عن وضع مصر وأبنائها فى الدفاع عن الإسلام، من البديهى أن يكون هناك من يريد الأذى والسوء لمصر.

وهذا ليس بغريب، فمصر فعلاً كنانة الله والمدافعة عن الإسلام ومقدساته عبر الزمان.

لذلك فهى مستهدفة دائمًا وأبدًا من أعداء الله فى كل شىء، مستهدفة فى أقواتها وأرزاقها وأبنائها وحدودها وخيراتها ومعتقداتها، إلا أن المولى عز وجل هو الكفيل بقصم من يريد الإساءة إلى مصر.

فإن يد البطش الإلهى هى الحامية لمصر من أعدائها وأن أى إنسان يبدى مجرد الإرادة أو نية السوء لمصر سواء من داخلها أو خارجها فهو عدو الله ولابد أن يكون قاصمه هو الله وذلك أن المولى عز وجل قد كفل الحفظ الإلهى لمصر من أى سوء وهذه حقيقة واضحة أكدتها أحداث التاريخ القديم والحديث لمصر وهى حقيقة يجب أن نؤمن بها مهما مر على المصريين من محن سواء قصرت أم طالت. فمهما طالت المحن فإن الله حافظها، وممكن لها، حيث يقصم الله أعداءه وتبقى مصر.

إن مصر بتاريخها الذى هو أصل تاريخ البشرية، وفى حضارتها التى استوعبت عبر مسيرتها الطويلة حضارات العالم قبل الأديان السماوية، ثم ما بعد الأديان السماوية الثلاثة، وظهور أو ارتباط تلك الأديان بمصر بصورة أو بأخرى، كما أنها ارتبطت بالحضارتين الإغريقية والرومانية وهى أصل الحضارات الأوربية المعاصرة، وهى بفضل موقعها الفريد المتوسط للعالم، تعد مفتاح العالم العربى وقلبه النابض وكل ذلك يفسر أيضا لماذا دائمًا ما يكون اتجاه الدول الكبرى والأطماع التوسعية والإمبراطوريات توجه زحفها وسيطرتها نحو مصر، فمصر هى التى قدمت المغرب العربى إلى المشرق تاريخيًا وجغرافيًا.

لقد ذكرنا أن مصر هى أول دولة تظهر فى العالم كوحدة سياسية، فالتاريخ المعروف والمكتوب يضرب بجذوره إلى أكثر من سبعة آلاف عام انتقلت فيها الهوية السياسية للدولة والمجتمع من حالة لأخرى مع اختلاف الطبيعة الحضرية، تلك الطبيعة ولدت من التفاعل الخلاق بين البشر والأرض التى يعيش عليها وجمعت شتى جوانب الدولة عبر الزمان والمكان، فالهوية المصرية متعددة الجوانب والتوجهات نتيجة للأجناس التى اندمجت وعاشت فى المجتمع المصرى وأيضا تأثير الأديان السماوية، الدين اليهودى والمسيحى والإسلامى، فاندمجت الثقافات وتعايشت فى تصالح إنسانى ومصطبغًا بصبغة مصرية خالصة.

ومن هنا فإن الهوية المصرية واحده ذات أبعاد مختلفة نابعة من عملية التفاعل الخلاق والحى مع الواقع والتاريخ ومن ثم فلا يمكن النظر لمصر فى مرحلة واحدة من تاريخها أو فى مظهر واحد من مظاهر حضارتها أو فى بعد واحد من أبعادها الجغرافية، إن مصر هى كل هذا، مظاهر متعدد لهوية واحدة.

فأما عن البعد الآسيوى:

فهو الأهم والأخطر، وفى ذلك يقول د/ جمال حمدان «من بين البعدين القريبين يذهب الثقل والخطر دائمًا وأساسًا للبعد الآسيوى الذى يأتى مبكرًا باستمرار، بينما يغلب أن يتأخر الأفريقى زمنيًا» وفى ذلك اتجهت مصر قديمًا بعلاقاتها الخارجية نحو آسيا وهو البعد العربى فى الهوية المصرية ارتبطت به مصر من خلال سيناء إلى جانب البحر الأحمر الذى يفضى بمصر إلى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن فهى المحور الشمالى الشرقى وبوابتها الرئيسة ومدخلها الأول.

وكان للنيل أيضًا دور مساعد فى ذلك نتيجة لجنوحه ناحية الشرق، والارتباط الدينى أيضا كان ناحية الشرق، فمواطن الأديان التوحيدية كانت فى فلسطين وسيناء والحجاز،

ولذلك فمصر لعبت دورًا فى مراحل الدعوة الثلاثة، فكانت لموسى قاعدة ومنطلقًا، ولعيسى ملجأ وملاذًا بينما كانت مع النبى محمد ﷺ هدية ومودة ورحمة.

ومن ناحية الشرق أيضًا أخذت مصر الشخصية الكاملة فى اللغة والثقافة والدين.

أما فى الوقت الحاضر، فيلعب البعد الآسيوى دورًا كبيرًا فى السياسة القومية من خلال التعاون المصرى العربى والتكامل المشترك، وأيضًا القضية الفلسطينية ومن قبلها حرب أكتوبر ويسبقها الحروب الصليبية، فلقد خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الآسيوية بما فى ذلك اليمن، ولعل الأحداث المؤسفة التى جرت على أرض سيناء فى الفترة الأخيرة من إرهاب تدفعنا إلى توجيه التنمية إلى تلك المنطقة وبسط السيطرة عليها لما لها من تأثير قوى على السياسة القومية والأمن القومى والتى تأخرت كثيرًا.

• البعد الأفريقى:

يتداخل البعد الأفريقى مع البعد النيلى، فالقطاع الأكبر من بعدنا الأفريقى هو بعد نيلى، فمصر هى بوابة القارة الأفريقية وحارسها فى الشمال الشرقى ونقطة الارتكاز بالنسبة لها فى التضامن الآسيوى الأفريقى، فهى تجمع بين عروبتها وبعدها الأفريقى، فى وحدة تضامن – بعدها الأفريقى – فى المجال الدولى سياسيًا واقتصاديًا وحضاريًا، ودائمًا ما لعبت مصر دورا قياديًا فى أفريقيا مثلما لعبته قديمًا فى الحضارة، وعلى الرغم من ذلك فلقد تقلص هذا الدور القيادى مؤخرًا، مما كان فرصة للطامعين والمتآمرين – منهم من يظهر عداءه ومنهم من يخفيه – للتدخل فى الشأن الأفريقى مما أدى إلى تهديد الأمن القومى المصرى.

• البعد النيلى:

يمكن أن نجمل خصائص البعد النيلى فى كيان مصر بصفة عامة. أنه بُعد أصيل وجوهرى لاشك، لم يعرف الانقطاع بل بشكل عام زاد عمقًا على مر العصور، غير أنه يغلب عليه الطابع الحضارى والسياسى أساسًا، وهو من هذه الزاوية من طرف واحد بالضرورة: إيجابًا فى الشمال وسلبًا فى الجنوب، فلقد صدرت مصر عناصر حضارتها وعقيدتها الفرعونية إلى الجنوب وكررت دورها مع المسيحية، فلقد امتدت ديانة مصر المسيحية إلى الجنوب حتى وصلت إلى الحبشة فكانت قمة الإشعاع الدينى والتى ارتبطت كلية بالكنيسة المصرية[1].

(١) د/ جمال حمدان – شخصية مصر.

ومثلهـا تكرر أيضًا مع الإسـلام، فكان لمصر بـه امتداد نحو الجنـوب، فعلى الرغم من أن السودان سبق تعريبه إسلامه، وعلى الرغم من أن إسلامه عن طريق الجزيرة العربية والبحر الأحمر رأسًـا سبق إسـلامه عن طريق النيل، فلقد لعبت مصر دورًا مهمًا فى دفع المد الجديد وكقاعدة كبرى لتعريب السودان، فمنذ الفتح العربى لمصر اتجه زحف الإسلام إلى السودان.

هـذا هو حقيقة البعد النيلى من الناحية البشـرية، أما مـن الناحية الطبيعية فهو بعد هيدرولوجى بالغ الخطورة بحسـبانه أسـاس الوجود المصرى، ولا يخفى على أحد الخطر المحدق والمشكلة الأهم والتى على مصر مواجهتها وهى سد إثيوبيا.

- **البعد المتوسطى:**

إن البحـر المتوسـط بُعد مهـم فى توجيهنـا الجغرافى فهو نافذة مصر على الشـمال، وضابط إيقاع لنبضها الحضارى والمادى، غير إنه من الواضح أنه توجيه متقطع يشتد حينًا ويضعف حينًا، أى أنه مذبذب بين شـد وجذب، ثم أن دور مصر فيه اسـتقبال أكثر من إرسـال، وإن كانت العلاقة عكسـية فى التاريخ القديم، وهو بعد حضارى أكثر منه طبيعيًا واقتصاديًا أكثر منه بشرياً، وله أهمية كإطار لتبادل المصالح والمنافع الاقتصادية، والعلمية، والتكنولوجية، السياسـية وله أبعاده الأمنية المستقبلية فى ظل عالم تتلاشى فيه المسافات ويصبح التضامن هو سمة القرن الحادى والعشرين.

وهذا التعدد السـابق فى مصادر أبعاد الهوية المصرية، يسـمح لها بمرونة فى حركتها ونشـاطها السياسـى والاقتصادى والاجتماعى سواء على السـاحة الداخلية أم الخارجية، وأيضًـا يسـمح بالحفاظ على أركان قيمهـا الثابتة والمتمثلة فى عظمـة تاريخها حضارتها وثقافتها وهويتها الواحدة على الرغم من تنوع مصادرها.

أمـا عن دور نهر النيل فى الهوية المصرية، فلقـد كان له دورٌ رئيسٌ فى بنائها، ودورٌ أكبر فى تكوين التسـامح فى المجتمع المصرى، فلقد دفعهم النيل إلى أن يسـتوطنوا المناطق المحيطـة والمتاخمة له، ومن ثم جعل المصريين يتواجدون فى تلاصق حياتى وجوار قريب أبعد عنهم الفرقة وخلق بينهم التقارب القيمى والمشاركة فى الدفاع عن مصادر الرزق، لذلك فإن للحضارة المصرية خصوصية وللشخصية القومية المصرية تفردها يتصدرها دائمًا التسامح والتدين ونبذ العنف والتطرف.

مــن هنا فالمواطنــة ضاربة بجذورها فى عمــق الوعى الوطنى للمصريــين عبر التاريخ، فهى إرادة سياســية كامنة فى قلب ووجدان كل مواطن وتســرى فى عروقه مســرى الدم، وتبعث فى قلبه ووجدانه روح الانتماء للأرض وتحثه على المشاركة المجتمعية وأداء واجبه الوطنى، فهى ليست بدعة أو اختراع، ولقد ذكر القرآن الكريم مصر كدولة (مدنية) بالمفهوم الحقيقــى لكلمة دولة بما فيها من مواطنــين ولها معالم وحدود، فالمواطنة والانتماء الوطنى وحب الوطن لهم تأصيل فى القرآن الكريم.

وانعكاســا حقيقيا للمجتمع الزراعى، فالمجتمع المصرى يتميز بوضع شديد العراقة للأسرة المصريــة التى تتمتع بالطابع المركزى والتماســك، وما قامت عليه مــن قيم ومازالت ثابتة فى أغلــب جوانبهــا، بغض النظر عن تغير ديانة غالبية أهل مصــر من ديانات وثنية إلى سماوية يهودية ومســيحية وإســلامية وأيضا الوافدين الذين اندمجوا فى المجتمع المصرى، تلك القيم يمتــزج فيها الولاء للأســرة بالــولاء للتراب الوطنــى، توارثته الأجيال كرســالة أخلاقيه عبر التاريخ، وتشكلت بها الدولة المصرية.

وكنتيجة للتكوين الإنسانى للمجتمع المصرى وعمقه الثقافى السحيق ورحابة فكره وتسامحه، تأتى حرية العقيدة أصلاً من أصول الوطنية المصرية وإحدى مظاهر التعبير عن هويتها.

وانعكاســا للوضع المصرى الجغرافــى والديموغرافى تحتم على مصــر أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية، فلقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تؤهلها وتدفعها إلى ذلك فهى قلب العالم العربى وواســطة العالم الإســلامى، وحجر الزاويــة فــى العالم الإفريقى، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقســم إليها العالم العربى بحكم السياســة والظــروف، وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة الســكانية، والثروة العامة فى مســتوى الثقافة وتشــكيلات الدولة، بما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقوميــة العربية، وهذا الدور فى مضمونــه التضحية والبذل والعطاء، وفى جوهره النموذج والمثل والقدوة وهما سبيلا مصر للاحتفاظ به.

• قناة السويس ودورها فى موقع مصر الجغرافى:

لقد جاء شق قناة السويس فى ستينيات القرن الماضى لتستعيد مصر بها مكانها الحقيقى فى الإطار العالمى، فبشــق القناة تحولت مصر من دولة برزخ تقوم بدور الوســيط البرى بين البحرين الأحمر والمتوسط، إلى دولة ترانزيت تلعب دور الوسيط الملاحى بين هذين البحرين

دون انقطاع برى يستوجب إعادة التفريغ والشحن[1]، هذا الاتصال البحرى الذى حققته هذه القناة ربط بين عالمين مختلفين إلى حد كبير فى خصائصهما الثقافية والاقتصادية وهما عالم الجنوب وعالم الشمال، وأدى ذلك إلى اتساع محيط الدائرة التى يقوم بخدمتها هذا الطريق.

وعلى الرغم من الزيادة المطردة فى عائدات مرور السفن وخدماتها، فإن المشكلة تكمن أساسًا فى أنها لا تمثل مصدرًا آمنا ومستقرًا فى إيرادات الدول.

وهذه هى آفة الاعتماد على الموقع كمحور اقتصادى، فهو شديد التأثر بالمتغيرات الخارجية التى يصعب التكهن بها والتحكم فى مسارها، كالحروب أو التهديد بها، والأزمات المالية والاقتصادية العالمية، ونشاط القراصنة فى المياه الدولية، ومن هنا يمكن القول إن مصر شديدة الحساسية لكل ما من شأنه أن يؤثر على حركة السفن فى البحر الأحمر، وسلامته تمثل أحد الثوابت فى الإستراتيجية المصرية.

ولأن هذا الموقع يستمد نفوذه الاستراتيجى من قدرته النسبية على تسهيل الاتصال، وتنمية العلاقات التجارية بين دول المحيطين الهندى والأطلنطى، مرورًا بدول البحرين الأحمر والمتوسط، ذلك يحتم تعظيم إمكانيات مصر كدولة ترانزيت، ويتطلب بدوره تعزيز القدرة التنافسية لقناة السويس ، فى مواجهة طريق رأس الرجاء، وأيضًا اتجاه إسرائيل التى تعتزم مد خط سكة حديدى يأخذ دور القناة، أو حتى يؤثر فيها، لذلك عامل السرعة فى التطوير مطلوب، خاصة فيما يتعلق بتعميق مجرى الملاحة باستمرار وتوسيعه ليستوعب الناقلات والحاويات والسفن العملاقة، وإقامة خدمات متنوعة، وصناعات صغيرة ومتوسطة، وإنشاء ترسانة بحرية لصناعة وصيانة السفن والصناعات المعدنية، بمعنى تحويلها إلى منطقة خدمات لوجيستية عالمية.

ولا يوجد أبلغ مما قاله د/ «جمال حمدان» عن دور القناة «أنها هدية الموقع إلى مصر وهدية مصر إلى العالم».

- **ثروة مصر البشرية:**

أولا: البيئة الطبيعية ورد الفعل البشرى:

١ – «فى أزمة عصر الجفاف التى ضربت سكان الصحراء الأفريقية فى أواخر العصر الحجرى القديم وحشدتهم قسرًا فى بيئات الأودية النهرية المحدودة، يرى «أرنولد توينبى»

(١) الجغرافيا الإقليمية – دار النهضة – محمد سطيحة.

التحدى الأول الذى واجه سكان مصر وألهب مخيلتهم الإبداعية من أجل البقاء فكان اكتشاف الزراعة هو الاستجابة الحرجة والخلاقة»[1].

(أ) التحدى والاستجابة:

ويلخص د. شفيق غابريال، ما قاله «أرنولد توينبى» المؤرخ الإنجليزى فى موسوعته التاريخية «دراسة التاريخ» «فيقول عن تكوين مصر»[2].

إن هؤلاء المصريين الأوائل – شأنهم فى ذلك شأن بعض الشعوب الأخرى واجهوا بعد نهاية عصر الجليد التحول الطبيعى العميق فى مناخ جزء من أفريقيا وآسيا نحو الجفاف.. هذا هو التحدى..!، فما كانت الاستجابة..؟

وأخيرًا منهم أقوام استجابوا لتحدى الجفاف بتغيير موطنهم وتغيير طرائق معيشتهم معًا، هم المصريين الأوائل، الذين قاموا بالعمل المزدوج.. تغيير الموطن وتغيير طريقة الحياة.. فخلقوا بهذا مصر كما عرفها التاريخ وأخضعوا طيش الطبيعة لإرادتهم، وحولوا المستنقعات إلى حقول تجرى فيها القنوات والجسور، وبدأ المجتمع المصرى قصة مغامرته الخالدة..!

(ب) الرجل الفذ والرجال الموهوبون:

ويبقى علينا أن نسأل: لما اختلف مسلك المصريين الأوائل عن مسلك غيرهم من الأقوام الأخرى؟

يجيب أرنولد توينبى: اتفاق وجود الرجل الفذ، أو الرجال الموهوبين، الذين يقودون شعبهم فى الساعة الملائمة إلى مغامرة كبرى من مغامرات الخلق والتكوين.

إذن أبدع المصريون واجتهدوا وصنعوا حضارة، بل هى أول حضارة عرفها التاريخ، بعد أن تحدوا الطبيعة واستطاعوا أن يخترعوا الزراعة ويؤسسوا لحياة بشرية، نعم لقد وفر النيل والشمس خامات الحياة، ولكنة كان لابد لصنعها من معركة ضد الموت، ضد الفيضانات، ضد الرمل والملح... إلخ.

ولعل أبلغ أثر على أن المصريين هم الثروة البشرية التى صنعت حضارة التاريخ وليس النيل فى المقام الأول على الرغم من فيضانه وإعطائه، والدليل على ذلك أن هذا الأخير يمتد أيضًا إلى المناطق الجنوبية يفيض أكثر مما يفيض فى أجزائه الشمالية.

---

(١) د/ جمال حمدان – شخصية مصر.

(٢) تكوين مصر – د/ شفيق غبريال.

ولا شـك أن بيئة مصر العظيمة قد جمعت فى تناسـب معقول بين حوافز النشاط وبين إمكانيات العمل، بين الضرورة والاحتمالية، فمصر كانت فى طبيعتها غنية ولكن لم تصل إلى حد التبذير، فلم تكن الثمرة تسَّاقط من الأشجار لفلاحين كسالى ولهذا فلقد كان الجهد البشرى شرطًا للتقدم، وكان التقدم مكافأة الجهد البشرى.

٢ – إن المصريين الأوائل، أجدادنا القدامى، صنعوا حضارة بهرت العالم، ولا زالت تتحدث عن نفسها حتى اليوم، ولم تكتشف كل أسرارها بعد، فلقد ظهر تفاعل المصرى كثروة بشرية مع الموارد الطبيعية، وأهمها النيل حيث اخترعوا الزراعة وارتبطوا بها وأقاموا مجتمعاتهـم حوله، وكان لذلك كبير الأثر فى هوية المصرى، ولتطويع النيل وترويضه أنشأوا السلطة المركزية، وطوروا أساليب التحكم فى فيضانه، بينما تعلموا منه الحساب والقياس فاستخدموا القدم والزراع كوحدات للقياس، كما استخدموا الأرقام العشرية فى حساباتهم، وعرفوا صناعة القوارب وأشرعة السفن، ومن غرينه صنعوا الطوب والأوانى والفخار، كما اخترعوا الورق من البردى وابتكروا الكتابة، وطوروا علوم الفلك وتحديد الفصول والشهور.

٣ – وجـاء تفاعـل المصرى القديم مع السـماء والشـمس والنجوم مكونـا للعاطفة الدينية والروحية، حيث ارتبطت الآلهة المصرية مثل «رع وأمون» بتلك القوى السـماوية، كما أن عقيدة البعث والخلود ظهرت فى مصر القديمة قبل ظهور الأديان السـماوية، تلك العقيدة التى دفعته إلى تشـييد الأهرامات كمقابر للملـوك، كما أن الدعوة لمفهوم الإله الواحد التى نادى بها إخناتون كانت هى المبكرة لفكرة الوحدانية ويتجلى ذلك عندما رمز لها هذا الفرعون المصرى بقرص الشمس «أتون» إن هذا التفاعل بين لنا مدى التدين الذى كان يتشبع به المجتمع المصرى قديمًا.

٤ – كمـا تفاعلـت مصر مـع الهجرات التى اسـتقبلتها فى العصر المسـيحى من حوض البحر المتوسـط إذ أن مدينة الإسـكندرية التى أسسها الإسـكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م أصبحـت مركزًا للثقافة الإغريقية، وغيرت مصر لسـانها للمـرة الأولى وكتب علماؤها باللغة الإغريقية، تلك المدينة التى شهدت العديد من الأحداث وامتزجت فيها العديد من اللغـات والأجناس، فهى تمـوج بالآثار الغارقة وتختلـج بالانفعالات واللحظات الفارقة، وتلك الهجرات ذابت فى الشعب المصرى أثناء العصر القبطى.

٥ – حينما فتح العرب المسلمون مصر عام ٦٤٠م فتحت مصر أبوابها للهجرات العربية التى توافدت إليها، حتى أصبحت أغلبية المصريين من المسلمين وسادت اللغة العربية، وبذلك تكون مصر قد غيرت لسانها للمرة الثانية.

وكان الوادى والدلتا يستوعبان الهجرات الوافدة ويعملان على صهر كل من يسكن فى أرض مصر فى بوتقة واحدة.

٦ – استطاعت مصر – فى عهد المماليك – أن تصد العدوان المغولى فى موقعة (عين جالوت) عام ١٢٦٠م على العالم العربى وتحمى الإسلام من عدوانهم كما تمكنت من الانتصار على الخطر الصليبى من قبل، فعلى أرض مصر اندحر الغزاة، وبذلك أصبحت مصر مركزًا للغة العربية والثقافة الإسلامية بفضل الأزهر الشريف.

ثانيًا: صفات المصرى عبر التاريخ:

بالعلم والعقل والعدل والالتزام الدينى والأخلاقى بنى المصريون القدماء حضارتهم بما مكنهم من أن يتركوا لنا وللعالم هذا التراث الحضارى العظيم، تلك الحضارة التى جعلت من مصر مهدا للتاريخ وواحة للقيم ومنبعًا للجمال الإنسانى والأخلاقيات الدينية التى برزت معها عقيدة الثواب والعقاب فى الدنيا والبعث بعد الموت، وارتباط مفهوم العقاب فى الآخرة للأشرار الذين عكروا صفوا الحياة، كما أرسى المصريون مجموعة من القيم الدينية التى جعلوها عقيدة دينية تدفعهم وتحثهم وتلزمهم على العمل والإنتاج فكانت حضارة شهد بها العالم وعجز أمامها العلماء رغم التطور ومرور آلاف السنين.

ولقد وصل كهنة مصر إلى درجة من العلم والحكمة ما جعلهم يتفاخرون على شعوب العالم فاستيقظ عقل وضمير الإنسان المصرى فكانت المعلمة الأولى للإنسانية، تلك العقيدة الدينية والعقلية العلمية كانت الدافع نحو البناء والنبوغ والإنتاج الحضارى، وانعكاسا لهذا التدين بجانب الطبيعة التى عاش فيها المصرى وتفاعله معها أدى ذلك إلى وجود سلام داخلى لديه ومسالمة خارجية تجاه السلطة المركزية الحاكمة وسلام تجاه الدول المجاورة، وكان من أسباب ذلك:

قناعة الإنسان المصرى التى جعلته يعيش حياة تتسم بالبساطة والرضا بالقليل، وهو ما يتناسب مع المجتمع الزراعى الذى كان يحياه الإنسان المصرى، وهذا ما دفعه أيضًا إلى قبول الظلم أحيانًا من بعض الحكام، فى حين أن ذلك لا يطغى على مرؤته التى تجعله

يرفض جرح الكرامة أو الإهانة وهى ما تجلت فى ردع الطغاة والمعتدين وقيامة بالثورات، وأيضا حينما جاء الرد فى حرب ١٩٧٣م بعد حرب ١٩٦٧م، وهذا ما يعنى أن الشعب المصرى يحرص على السلام ولا يسعى إلى الغزو كقاعدة عامة، بينما يرفض الخضوع والخنوع، فشخصية المصرى مزيج من العزة والكرامة والاعتدال والتسامح ورفض الظلم ونبذ التطرف.

وكنتيجة لفيضان النيل ووفائه، طبعت صفة الوفاء والكرم فى الإنسان المصرى، فكان الاحتفال بفيضان النيل السنوى ويسمى «عيد وفاء النيل» فأصبحت تلك الصفة تجرى فى دم المصريين مجرى المياه على الأرض، فهى شريان الحياة فى البلاد، وهو أيضا ما يعكس حنين المصريين دائمًا إلى وطنهم، فالأرض المصرية شكلت عقيدة المصرى ومثلت دائمًا قوة جذب له.

أما عن الفلاح المصرى فهو أقرب للفطرة فى طبيعته وانفعالاته، وهو أكثر سذاجة عن غيره من الشعوب، والمواطن المصرى بصفة عامة يميل إلى المثالية والقيم أكثر من ميله للماديات وحسابات الربح والخسارة، وينطبق هذا على الفرد البسيط كما ينطبق على الكثير من القادة والسياسيين فى تصرفاتهم تجاه الدول الأخرى، ومن هنا فإن مصر تحرص دائما على أن يكون لها رسالة، فالمبادئ والقيم هى بوصلتها قبل المصالح، ورسالتها هى الحياد الايجابى.

ومن مظاهر التدين لدى المصريين، براعتهم فى الأدب الدينى الذى تناول العقائد الدينية ونظرياتهم للحياة الأخرى وأسرار الكون والأساطير المختلفة للآله والصلوات والأناشيد، ومن أقدم أمثلة الأدب الدينى «نصوص الأهرام».

أما عن الهمة والإرادة والعزيمة والجسارة والقدرة والتصميم على التنفيذ لدى المصرى، فبعض مظاهرها «تطويع النيل وإقامة مجتمعات على ضفتيه، وبناء الأهرامات، وحفر قناة السويس، وتشييد السد العالى، وإنجاز عبور القناة واقتحام خط بارليف فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م، تلك بعضها».

أما عن الصبر والمثابرة، فهى صفة أصيلة فى الإنسان المصرى، وما أدل على ذلك ما أقامه من منشآت ضخمة ومقابر ومعابد ومسلات، هذا الصبر مستمد من تحديات الطبيعة المصرية، فالصبر هو الوجه الآخر للتحدى، تحدى البيئة فى محاولة تمهيد الأرض وتطويع النيل وإخضاع فيضانه لإرادته، والحقيقة أن إقامة المعابد والمقابر لم يكن دافعه الصبر فقط، بل الإيمان العقدى بأن المساهمة فى مقبرة ملكية أو معبد آلهة سيضمن له الخلود والنعيم فى الحياة الأخرى، فالإيمان هو ما أهله لتحمل قسوة العمل فى البناء، أما عن اتصاف المصريين بالعلم والبراعة فيه، فحدث ولا حرج منها:

الطب: برع المصريون القدماء فى الطب، فكانت أول جراحة فى التاريخ مصرية، كما اخترعوا المشرط واخترعوا التخدير الموضعى وتوصلوا للخيوط الجراحية.، أما عن التحنيط فكان الدافع وراء اختراعه، هو الاعتقاد بأن الجسم يجب أن يظل سليمًا حتى يوم البعث لكى تتعرف عليه الروح، وأقدم جثة محنطة كانت للملكة «حتب حرس» والدة الملك خوفو[1]، وغيرها الكثير، وحديثًا نرى براعة الدكتور «مجدى يعقوب» وعظماء مصريون كثر.

أما عن الكيمياء: فإن علم الكيمياء مأخوذ من اسم مصر فى أحد عصورها وهو كمى، وكمى معناها الأرض السوداء (طمى).

وحديثًا الدكتور أحمد زويل: أول من قسم الزمن إلى أصغر وحداته واحد على مليون من بليون من الثانية، وحاصل على نوبل فى العلوم الكيميائية.

أما عن التأريخ فنجد قديما المؤرخ العظيم «مانيتون»، وحديثًا عباس العقاد وغيره كثيرين.

كما تقدم الفراعنة فى الفلك، حتى إن جامعة الإسكندرية استفادت من حضارة مصر الفرعونية فكانت لدينا المزاول الشمسية، والشاخص الرأسى، وعرفنا أن مركز الكون هو الشمس وليس الأرض، وأن الأرض تدور حول الشمس، وأن القمر يدور حول الأرض.

أما عن الفن التشكيلى، فلقد ترك الفن المصرى القديم بصماته الغائرة فى الفن السكندرى وبالتالى الفن اليونانى والرومانى.

كما عرف المصريون صناعة القوارب والحبال والسلال والحصير والأحذية وأشرعة السفن.. كذلك صنعوا الورق من البردى كما ذكرنا واخترعوا الكتابة، فكلمة paper الإنجليزية مشتقة من papuro المصرية، وأخذت الأبجديات الأخرى من حروفنا، كما أخذ اليونانيون عن المصريين الكثير من الاكتشافات مثل:

المتواليات الهندسية، والأرقام العشرية والكسور والمعادلات النظرية المعروفة باسم «فيثاغورث» والمسلات لتعيين الوقت[2]، وغيرها الكثير.

ولن نستطيع حصر كل ما ابتكره المصريون واخترعوه وكل ما برعوا فيه، أو حتى علموه للعالم..، فكانت حضارة لم يكن لها تاريخ، بل كانت فجر التاريخ، هذه بعض الصفات المتعلقة بالمصريين، وبعض المجالات التى برعوا فيها على سبيل المثال لا الحصر.

أما عن المظاهر السلبية للشخصية المصرية التى نراها الآن فى بعض جوانبها، فهى وليدة البعد عن الدين والظروف السياسية والنظم التى رتبت كيان المجتمع، وعلى ذلك

(١) مصر التى لا تعرفونها – وسيم السيسى.

(٢) المرجع السابق.

فهى ليســت سمات طبيعية فى المواطن المصرى نشــأت وتمت وســتظل هى مقوماته أبدًا، وإنما هى قابلة للتغيير والتعديل مادمنا نؤمن بما يقرره العلم والتاريخ، بأن الإنســان قابل للتعلم والتغيير، وقادر على تعديل ســلوكه طالما توافرت الإرادة والمؤسســات والنظم القادرة على التغيير ولا أدل على ذلك أكثر من ظهور المعدن الأصيل للمصرى ونبوغه وقدرته وقت الأزمــات وفــى المواقف العصيبة، وكذلك أيضا براعته ونبوغــه حينما يجد فرصة فى نظم خارجية تساعده على ذلك.

لقد برع المصريون القدماء، ولم يكن لهم تاريخ مسبق يدفعهم إلى ذلك، فكانت براعتهم أنهــم صنعــوا لنا حضارة وتاريخ نســتمد منه عظمتنا، ونشــعر فيه بقوتنــا، وينير العقول المظلمة، ويكون حافزًا وباعثًا لنا على استكمال البناء.

■■■

المفتاح الرابع

المشروع الحضارى

أولاً: مقدمات حضارية:

من حكمة الله أن جعل الأرض، كغيرها من الكواكب تدور حول الشمس ومع هذا الدوران تتقلب أحوال البلاد والعباد، فتجد فى تاريخ الشعوب خطا بيانيًا للحظات الهبوط والعلو الحضارى، تلك عادة الأمم وسنتها الطبيعية، إذ الأمم كالبشر تمر بأطوار طبيعية، وهذه حقيقة لا ينكرها إلا جاهل بطبيعة الحياة وقوانينها الأزلية، أو متوهم لفكرة لا وجود لها، يظن شيئًا فى خياله سيقع، وهو غير واقع، إذ أن قانون الطبيعة أن المادة لا تبقى على حالها، بل تتبدل من صورة إلى أخرى، وهكذا حضارات الشعوب تدور فى عمر كعمر الإنسان، فتولد الحضارة على سجيتها الأولى، ثم تنضج فتستوى، ثم تبلغ الأشد من عمرها، فإذا استوت تراخت ودب الوهن فى أركانها، حتى تهلك كما هلك من كان قبلها، تلك حكمة الله وسنته، ولقد جعل الله للصعود أسباب ووسائل ومثلها للهبوط، كما أعطى للإنسان عقل يجعله قادر على أيهما يختار قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة المؤمنون: آية ١١٥].

وحينما استخلف الله الإنسان فى الأرض، لم يمهد العالم التمهيد الكامل ولم يكشف عن أسراره الكونية وقوانينه بشكل كلى، بل ترك للعقل الذى خلقه فى الإنسان أن يؤدى دوره فى التفكير والتدبر والإبداع والابتكار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: آية ٢٧]. وسخر له جميع مخلوقاته، كما أن للروح دور، فمنها من تتسم بالعفاف عن الحرام، ومنها ما تتطلع إلى الشهوة فى غير الحلال، وضابط هذا وذاك هو العقل، ودافع العقل والروح معًا فى أى اتجاه تتحرك هو العقيدة والإيمان، فأرسل لنا الشرع والمنهاج، واستخلفنا فى الأرض لنعمرها، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: آية ٦١].

فإذا أخذنا بالأسباب فنحن على الطريق الصحيح، ولقد فعلنا فى العصور الوسطى، فتقدم العرب والمسلمون وصنعوا حضارة، وسادوا العالم.

وفى هذا السياق يقول ابن خلدون فى مقدمته «فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»، والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالاً فى الفقر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم، فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش، ورئيسهم محتاج إليهم غالبًا للعصبية التى بها المدافعة، فكان مضطرًا إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم، لئلا يختل عليه شأن عصبته، فيكون فيها هلاكه وهلاكهم، وسياسة الملك والسلطان تقتضى أن يكون السائس وازعًا بالقهر وإلا لم تستقم سياسته، ويستتبع قائلا، وأيضًا فإن من طبعهم كما قدمناه أخذ ما فى أيدى الناس خاصة والتجافى عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم ببعض، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما فى أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم، وربما جعلوا العقوبات على المفاسد، واستهانة ما يعطى من ماله فى جانب غرضه، فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران، فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدى بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعًا شأن الفوضى كما قدمنا، فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم، وتبدلهم بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس ببعضهم عن بعض كما ذكرناه، واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة لما شدد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرًا وباطنًا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم، ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة، ورجعوا إلى فقرهم، وجعلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا، ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم.

«لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة».

أما عن تقدم الأمم والشعوب، مع اختلاف العقيدة والإيمان (الأيديولوجية)، فراجع إلى تطبيق معايير العلم، فالعقيدة والإيمان مهما اختلفت، ومهما اختلف صوابها وخطؤها واعتناقها لشرع الله أو بعدها عنه، مهما كان ذلك تظل موجودة، وهو ما يفسر لنا تقدم الغرب وغيره.

وعلى الرغم من ذلك فإن الغرب قد بنوا نهضتهم و حضاراتهم على فكر العرب والمسلمين، فلقد قامت تلك الحضارة على مبادئ فكرة الإسلام المركزية بصبغة ليبرالية وصنعوا نهضة كانت هى أساس نهضة أوروبا فيما بعد، وهذه حقيقة شهد بها الغرب نفسه.

تقــول «زيجريــد هونكة» فى كتابها شمس الله تشــرق على الغــرب «وإن أوروبا مدينة للعــرب وللحضارة العربيــة، وأن الدين الذى فى عنق أوروبا وســائر القارات للعرب كبير جدًا، وكان ينبغى على أوروبا أن تعترف بهذا الفضل منذ زمن بعيد جدًا، ولكن التعصب واختلاف العقيدة أغميا عيوننا وتركا عليها غشاوة».

وتقول فى نفس الكتاب «وفى مراكز العلم الأوروبية لم يكن هناك عالم واحد إلا ومد يده إلى الكنــوز العربية يغترف منها، وينهل كما ينهل الظامئ إلى الماء العذب، ولم يكن هناك ثمــة كتــاب واحد من بين الكتب التى ظهرت فــى أوروبا فى ذلك الوقت، إلا وقد ارتوت صفحاته من نبع الحضارة العربية».

ويقول الفيلســوف الفرنســى «جوســتاف لوبون» فى كتابه «حضارة العرب»، لم يلبث العــرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتــب اليونان، أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة، وجد علماء القرون الوسطى فــى أوروبا ألف ســنة قبــل أن يعلموها، ويعزى إلى «بيكن» على العمــوم أنه أول من أقام التجربــة والترصــد اللذين هما ركن المناهــج العلمية الحديثة مقام الأســتاذ، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم.

ويقول فى موضع آخر: «ونشأ من منهاج العرب التجريبى وصولهم إلى اكتشافات مهمة وسترى من خلال مباحثنا، فى أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا فى ثلاثة قرون أو أربعة من الاكتشافات، ما يزيد على ما حققته الأغارقة فى زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان العلمى قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولما آل إلى العرب حولوه إلى غير ما كان عليه، فتلقاه ورثتهم مخلوقًا آخر.

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها كذلك، بما أقاموا من جامعات، وما ألفوا من كتب، فكان لهم الأثر البالغ فى أوروبا من هذه الناحية، وسترى فى الفصل الذى ندرس فيه هذا التأثير أن العرب وحدهم كانوا أســاتذة الأمم النصرانية عدة قــرون، وأننــا لم نطّلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضــل العرب، وأن التعليم فى جامعتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلا فى الأزمنة الحاضرة».

ويقــول «جيمس بيرك» فــى كتابه «عندما تغير العالم» «اســتمر تدفق طلاب العلم على أســبانيا فى طوفان منتظم، فاســتقر بعضهم هناك، وتفــرغ بعضهم لترجمة النصوص التى يبحثــون عنهــا، ثم عــادوا مرة أخرى إلى بلادهم فى الشــمال، غــير أن الجميع أصابهم

الذهول من تلك الحضارة التى وجدوها فى الأندلس لقد كان العرب ينظرون إلى الأوروبيين الشماليين على أنهم لا يزيدون فى مستواهم الفكرى والثقافى على مستوى الصوماليين.

أما المثقفون الشماليون، فقد وجدوا فى أسبانيا مجتمعًا مثقفًا على درجة عالية جدًا من التفوق، بالمقارنة مع مستوى المجتمع الثقافى فى بلادهم، مما ترك لديهم إحساسًا بالغيرة من الثقافة العربية التى ظلت تؤثر فى الفكر الغربى مئات السنين».

ويقول المستشرق «سبانسر فاميرى»: «لا يستطيع أحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسما عربيا ولا يستطيع عالم طبيعة أن يحلل ورقة الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يذّكر درسًا عربيًا، ولا يقدر أى قاضٍ أن يبت اليوم فى خلاف دون أن يستدعى مبدأ أصله العرب، ولا يسع أى طبيب أن يتأمل أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا أن يهمس بآراء طبيب عربى، ولا يستطيع رحالة أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وأفريقيا دون أن يعتمد على اللغة العربية»[1].

ومن هنا فإن العرب بفضل الدين وتطبيق العلم أبدعوا وأقاموا حضارة تعلمت منها الأمم وأسست عليها، وخلال العرض السابق يتضح أن العلم هو العامل المشترك فى تقدم الأمم مع اختلاف العقائد.

وبانتشار العلم وكثرته وسرعة وسهولة تداوله تقل الفترة الزمنية التى تقطعها الأمم لكى تتقدم.

- **أما عن أصل الحضارة:**

فهى مصر ومصر العليا بالذات، فلقد قامت منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة على يد «الجيش الأسمر» كما يسمون المصريين القدماء، وكانت تسمى حضارة الشمس والحجر كما أطلق عليها «سميث» وكانت أيضًا قائمة على النبوغ العلمى والتدين كما بينا، ولقد انتقلت الحضارة المصرية عن طريق الاحتكاك والتجارة والملاحة.

ثانيًا: تعريف الحضارة:

«يقول ابن خلدون فى تعريف الحضر: «التفنن فى الترف، واستجادة أحواله، والتكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس، أو المبانى أو الفرش أو الأوانى، ولسائر أحوال المنزل، ويلزم لهذا التأنق صناعات كثيرة»[2].

(١) موقع الشبكة العنكبوتية.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

ويقول «ول ديورانت» «هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافى بعناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، النظم السياسة، العقائد الأخلاقية، متابعة العلوم والفنون»[١].

ويقول«أرنولد توينبى» فى تعريف الحضارة «هى استجابات لتحدٍ صادر نتيجة أعمال إنسانية كالحروب والاضطرابات، أو أعمال بيئية كالجفاف والطوفان وشح الموارد»[٢].

ويقول الدكتور جاسم سلطان «النهضة هى حركة فكرية عامة، حية منتشرة، تتقدم باستمرار فى فضاء القرن، وتطرح الجديد دون القطيعة مع الماضى».

ويقول «جوستاف لوبون» «الحضارة، هى نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات، وتغير مشاعر الإنسان إلى الأفضل»[٣] ويقول ألبرت أشفيتسر« هى التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على السواء»[٤].

ويقول مالك بن نبى «الحضارة هى مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التى تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده فى كل طور من أطوار وجوده من الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية»[٥].

وهذه التعريفات على الرغم من تعددها فإنها ليس بينها تعريف عام وشامل للحضارة، ومع ذلك ليس بينها تناقض، بل قد تلتقى مع بعضها فى جانب أو أكثر من تعريف الحضارة، وذلك لاختلاف الزاوية التى ينظر منها، فهذه التعريفات تدور حول محور من محاور ثلاثة تكمل بعضها بعضًا، وترسم مجتمعه الصورة الكاملة للحضارة، هذه المحاور هى:

محور الأفكار والعقائد، محور القيم والمبادئ، محور العمل والإنتاج المادى.

ومن هنا فإن نقطة البدء لأى حضارة لابد أن تكون فى عالم الأفكار والعقائد بالدرجة الأولى، ثم تتبعها عالم القيم والمبادئ المنبثقة عن تلك الأفكار والمعتقدات، والتى تحكم العلاقات بين الإنسان وخالقه وبين الإنسان وأخيه الإنسان ثم بين الإنسان وعالم المادة، ثم تكون الخطوة الثالثة عندما ينطلق الإنسان بتلك القيم فى التعامل مع عالم الأشياء، أو الموارد المتاحة له فى الأرض ليحول كل ذلك إلى نتاج مادى حضارى شامل يضيف إلى الأمة ويتأثر به العالم.

---

(١) نشأة الحضارة ول ديورانت..

(٢) فلسفة التاريخ د/ جاسم سلطان.

(٣) روح الجماعة – جوستاف لوبون.

(٤) فلسفة الحضارة – مالك بن نبى.

(٥) آفاق جزائرية – مالك بن نبى.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نضع تعريفًا جامعًا لمعنى الحضارة فنقول:

«هى التحول من حالة التخلف التى يعانى منها شعب وذلك بتنميته تعليميا وصحيًا إلى حالة التقدم والازدهار، بداية من أفق الأفكار والعقائد، مرورا بالقيم والمبادئ الحاكمة للعلاقات، ليتسنى لهم الاستخدام الأمثل للموارد فى مجال العمل والإنتاج المادى ليدور كل ذلك فى فلك تيار ثابت من التقدم فى شتى ميادين الحياة، فتستجد أحوال المعايش وتظهر مظاهر الرخاء وتطور العمران، ليسجل التاريخ حقبة مبهرة فى عمر الأمة».

• كيف تحدث الحضارة؟

إن قيام الحضارة دائمًا ما يرتبط بالتحديات، فالتحديات هى سر نهضة الأمم، ولولاها لما ولدت الحضارات، فنهضة أى أمة من الأمم تكون استجابة مباشرة لتحد موجود، ولعل الشعب المصرى هو ملهم الشعوب فى ذلك، حينما تحدى المصريون الأوائل الطبيعة فى أقسى ما مر بها من تقلبات «عصر الجليد» أدت إلى ارتفاع مد البحار فى شمال الأرض، وزحفت من الشمال إلى الجنوب، فغطى الجليد وتراكم فوق أجزاء واسعة من أفريقيا وآسيا، ودمر ما فيها من نبات وحيوان، ليبدأ عصر آخر هو «عصر الجفاف» ففر من يعيش فى تلك المناطق من الناس، يلتمسون التجارة والبقاء إلا منطقة واحدة لم يهرب أهلها!.. لقد بقى أهلها فى أرضهم التى عرفت بعد هذا عبر التاريخ باسم مصر، وهذا هو صلب وصميم ما وضعه «أرنولد توينبى» من نظرية التحدى والاستجابة والتى تتكون من عنصرين.

(أ) التحدى:

هو عبارة عن ظروف صعبة، ومعوقات ضخمة أو تهديدات خطيرة، تواجه الإنسان فى بناء حضارته، تتمثل هذه الظروف،إما فى بيئة طبيعية أو ظروف بشرية، وهى التى تتحدى قدرة الإنسان، وتستحثه على العمل من أجل االتقدم.

وفى ذلك يقول«روبرت شولر»إن الصراع هو مكان ولادة الإبداع الأعظم»[1]

ويقول الدكتور «كاريل» الأهداف التى تعمل على إثارة الحاضر فينا تقوم بتقديم أجمل الهدايا لنا على شكل إنجازات.

(١) الذاكرة التاريخية – د/ جاسم سلطان.

وتاريخ الأمم ملىء بتلك التحديات التى كانت تواجهها على مر التاريخ وكانت سببًا فى بنـاء نهضتها وحضارتها، ولعل أبرزها ما ذكرناه عن التجربة المصرية قديمًا، أما حديثا، فـإن التجربة اليابانية مثال على ذلك، فاليابان بعد الحرب العالمية الثانية، كان التحدى الذى واجهه اليابانيون، هو انهيار وتدمير البنية التحتية وجميع مؤسسات الدولة، نتيجة الهزيمة الساحقة، وخاصة بعد أن قامت الولايات المتحدة الأمريكية بإلقاء قنبلتين نوويتين فى هيروشيما وناجازاكى، وهذا تحدٍ فى الظروف البشرية بالإضافة إلى أنه تحد فى البيئة الطبيعية، وهو الفقر الشـديد فى الموارد والخامات التى تعانى منه اليابان بسـبب موقعها الجغرافى، وطبيعة أرضها، وما بها من زلازل وبراكين.

هذه التحديات هى التى أفرزت لنا النهضة اليابانية العملاقة، التى وضعت اليابان فى مصاف أقوى الدول الاقتصادية على مستوى العالم حتى الآن بعد الصين وأمريكا.

(ب) الاستجابة:

هناك طريقان من الاسـتجابة يمكن أن يسـلكهما أى شعب فى مواجهة التحدى الذى يتعرض له:

١ – الاسـتجابة الفاشـلة: وهى التى تكون باستسـلام الأمة أو الشـعب لذلك التحدى، ممـا يـؤدى به إلى التخلف الشـامل فى شـتى الميادين فعلى الصعيـد الداخلى نجد الفوضى والتخبط، وعلى الصعيد الخارجى نجد الاعتماد على الغير فى المأكل والمشرب والحماية، بل وحتى فى العلم والفكر، وهو ما يمكن أن نسميه بقابلية الأمة للاستعمار.

٢ – الاسـتجابة الناجحة: وتتمثل فى قبول الأمة أو الشعب لهذا التحدى، بحيث يكون حافزًا له لبناء نهضته وحضارته، وسلوكه المسار الحضارى بجميع مراحله[1].

• الوسيلة الذهبية:

ينبئنـا التاريخ أن أى أمة من الأمـم عزمت على خوض التحدى ومواجهته لا يحالفها النجـاح فى المحـاولات الأولى، فتظل تتكـرر هذه المحاولات القاصـرة، حتى تصل فى النهايـة إلى الحل النموذجى فى مواجهة التحدى وهو ما سماه «أرنولد توينبى» بالوسـيلة الذهبية فالوسيلة الذهبية هى الاستجابة الصحيحة، التى تؤدى بالأمة إلى الطريق الصحيح

(١) نهضة أمة – هشام مصطفى عبد العزيز

لمواجهة تحدياتها، وهى الشرارة التى تقدح زناد التقدم والتى تأتى بعد سلسلة من المحاولات القاصرة، والتى تتسم بالتخبط وعدم وضوح الرؤية، وهذه المحاولات القاصرة، تكون ذات أهمية قصوى على طريق الوصول إلى الوسيلة الذهبية إذ أنها تؤدى إلى تراكم الخبرات وتدفع للبحث عن وسائل أخرى ناجحة، والوصول إلى الوسيلة الذهبية فى مسار تقدم أى أمة يقتضى غالبًا خروجًا عن المألوف، وسعة أفق، وجرأة فى طرق الأبواب الجديدة وعدم الاكتفاء بالوسائل المجربة سلفًا، وقدرة على اقتحام المصاعب.

يقول «روبرت شولر» «أفضل أن أغير رأى وأنجح، على أن أستمر على نفس الطريقة وأفشل».

ويقول أديسون: «العديد من التجارب الفاشلة فى الحياة تكون عندما لا يدرك الناس أنهم كانوا قريبين من النجاح عندما استسلموا».

وعندما سئل ذات مرة: لقد قمت بألف تجربة فاشلة قبل التوصل إلى الحل الصحيح، فما هو شعورك؟ قال: «أنا لم أقم بألف تجربة فاشلة، بل تعرفت على ألف طريقة لا تؤدى إلى الحل الصحيح».

«إن المفاصل المؤثرة فى تاريخ الحضارات عادة ما كانت تصنعها الأقلية المبدعة، التى تعشق المحاولات، وتهتم بالعثور على الوسيلة الذهبية»[1] فعادة الأمر إذن أن الذين يصلون إلى تلك الوسيلة الذهبية هم نخبة مثقفة مبدعة لديها الإرادة والإصرار والعزيمة ورؤية وحسن تقدير، وتتحلى بالجرأة على الخروج عن المألوف، مما يجعلها غالبًا فى عداء من المحيطين فى بادئ الأمر.

- **المسار الحضارى:**

إن الاستجابة الناجحة من الأمة التى تريد النهوض للتحدى القائم، إنما تكون عبر مراحل متدرجة، تشكل مراحل المسار الحضارى لأى أمة من الأمم، وهى المراحل التى تسلكها الأمة فى استجابتها الناجحة تجاه التحديات القائمة، والتى تؤدى بها فى النهاية إلى النجاح فى مواجهة التحدى والانتصار عليه وتكوين تيار التقدم الراسخ المتدفق الذى تنعم فى ظلاله بالرخاء والحضارة.

ويمكن حصر تلك المراحل فى أربع محطات رئيسة، حسب نظرية التحدى والاستجابة:

---

(١) الذاكرة التاريخية للأمة. د/ جاسم سلطان.

١ - مرحلة الصحوة:

«فالصحـــوة هـــى إرهاصات لحالة جديدة تعترى مجتمعًا ما، واضحة أحيانًا ومشوشـــة أحيانًا، ولكنها صرخة الجنين الأولى، وحركة من صحا من نومه فجأة، ولكنه لم يســـتيقظ بعد، ويتنبه لمحيطه الخارجى بشكل سليم، فربما اصطدم بمقعد أو دولاب دون أن يقصد أو يريد، ولكن هذه الأخطار تزيده صحوًا، وتنقله للاستيقاظ الكامل»[١]

وهـــذه هى المرحلة التى تدرك فيها الأمة حقيقة التحـــدى الذى تواجهه، وتصحو من رقاد غفلتها، لتبدأ فى رحلة النهوض وتشبه إلى حد بعيد حالة الطفل فى أشهره الأولى، فإن حركته تكون عشوائية، ولا يستطيع أن يتبين حقيقة ما حوله بوضوح، إذ مازال أفقه ومداركه لم تنضج بعد، ففى تلك المرحلة إذا تحرك فقد يتخبط فيما حوله، أو كالإنسان الذى صحا توا من نومه، فإنه يكون برأســـه بقايا النوم، ولا يستطيع أن يتبين ما حوله بوضوح، وهذا بالضبط ما يحدث للأمة حين تصحو، فإن تحركها يكون فى بدايته تحركًا عشوائيا، تغلب عليه الحماسة، ويفتقر إلى الرؤية الواضحة والحكمة العميقة، والتقييم السليم للأمور، ومن ثم فقد تحدث أخطاء فادحة فى هذه المرحلة، لكنها ضرورية لاستبيان الطريق، والوصول إلى الرؤية الصحيحة الواضحة.

وإذا نظرنا إلى أوروبا على ســـبيل المثال، وكيف كانت محاولات التحرر من أســـر عصر الظلمات فى القرون الوســـطى، ستجد استجابات عشوائية فى البداية، تمثلت فى الصراع والتفتت والاقتتال الدينى وغير ذلك من الأشكال غير الناضجة للتحرك.

فمرحلـــة الصحوة فى جوهرها تمرد على واقع مرفوض، وبحث عن مخرج له، وتحرك الأمـــة نحو ما تظنه الحل لأزمتها، وفيها ترتكب الأخطـــاء، ويخوض المجتمع صراعات مريرة وتجارب فاشلة، لكن تراكم الخبرات المستقاة من تلك التجارب هو الذى يقود الأمة فى النهاية إلى المرحلة التالية وهى مرحلة اليقظة[٢].

٢ - مرحلة اليقظة:

هـــى حالة تالية تنقشـــع فيها بقايا الخمـــار العقلى، ويعرف فيها المـــرء مكانه ووضعه بالنســـبة لما يحيط به من أشياء وبشـــر، فيكيف حركته ليسير بين عالم الموجودات المادية حوله، وينظم علاقته بعالم البشر المحيط به»[٣]

(١) النهضة من الصحوة إلى اليقظة – د/ جاسم سلطان.

(٢) نهضة أمة – هشام مصطفى عبد العزيز.

(٣) النهضة من الصحوة إلى اليقظة – د/ جاسم سلطان.

تلـك هى المرحلة التى يبدأ فيها التحرك الراشـد الواعى للأمة نحو تقدمها، فإن كان التحرك فى مرحلة الصحوة تحكمه المشـاعر والعواطف ويغلب عليه العشـوائية، فإنه فى مرحلة اليقظة يحكمه العقل وترشـده الحكمة، على عكس سـابقتها، وذلك بعد أن تصل الأمة إلى وسيلتها الذهبية نحو تحقيق التقدم.

فأهم ما يميز مرحلة اليقظة هو توصل الأمة إلى رؤية واضحة شاملة رشيدة، مبنية على التوصيـف الصحيـح للواقع، وعلى تحديد الممكن وغير الممكـن، وعدم تبديد الطاقات فى أعمال لا طائل منها، والحساب الجيد لموازين القوى الموجودة على الأرض، وكيفية التعامل الرشيد الحكيم معها، ولا تكون مرحلة اليقظة إلا بعد وجود العقول الناضجة المبدعة التى تبدأ فى التفكير فى مسـلمات المرحلة السـابقة وتقويم طرق عملها، ثم تعمل العقل فيها، ممتلكة الجرأة الكافية للخروج عن المألوفات والعادات، لتبدع وسائل وأساليب جديدة تنقل الأمة من مرحلة الانتظار وكونها مفعولاً به على الدوام، إلى مرحلة المشاركة الفعلية وكونها فاعلا مؤثرًا فى الأحداث، صانعًا لها، مستفيدًا منها فى بناء التقدم المنشود.

وغالبًـا ما تكون مرحلة اليقظة حينما تدرك كل التيـارات والفصائل العاملة أن أحدها لا يسـتطيع أن يسـتقل بعملية التقدم، فتذوب الصراعات الداخلية بين أجزاء المجتمع، ويـدرك الجميع أنهم فى سـفينة واحـدة، فيقدمون مصلحة الوطـن ككل على مصالحهم الحزبية الضيقة، وتتكاتف جميع طوائف المجتمع للعمل فى مشروع حضارى واحد.

٣ - مرحلة النهضة:

يقول الدكتور جاسـم سـلطان موضحًا بعض أعراض استشعار الإنسان لذة العمل والاكتشاف والقوة، «فهى حالة تتخلل كل أشكال الحياة، وحالة تعطى للزمن قيمته من حياة الأمة، وتعطى للتفوق والإبداع تقديرهما، إنها مرحلة تدفق الشلال، الذى كان يسمى بالصحوة – ليصوغ كل مجالات الحياة العلمية والتطبيقية صياغة جديدة، وفى مرحلة النهضة يعم نور البحث والنظر، وتولد الإبداعات التى تؤسس لنشوء عالم الأشياء، الذى يزود الحق بالقوة فيسيران معًا».

وتلك المرحلة التى يقطع فيها المجتمع شوطًا فى تحقيق رؤيته الراشدة، وذلك حينما تتضح لـه أفكاره وعقائده الصحيحة، ويتبنى مجموعة من القيـم الدافعة، والتى تنظم علاقته بالكون كلة، وتدفعه إلى الاسـتغلال الأمثل لعالم الموارد والأشـياء، بما يحقق له إنتاجًا ماديًا ملموسًـا وتقدما فى شتى الميادين.

وحينما يتحول ذلك الوضوح الفكرى، وهذا النضوج القيمى، وذلك الإنتاج المادى إلى تيار دافق مستمر، وتتبلور عملية النهضة فى شكل إصلاح دينى واجتماعى وسياسى واقتصادى، يستشعر الإنسان والمجتمع ككل معنى وقيمة النجاح، عندها يبدأ المجتمع فى الانتقال إلى المرحلة الرابعة.

٤- مرحلة الحضارة:

هى المرحلة التى تصنع فيها الأمة تاريخها المبهر وتحقق تجربتها الرائدة على أرض الواقع ليتشكل عصر جديد تنعم فى ظلاله الأمة بالرخاء والازدهار وجودة الحياة، بعد أن تكون قد بنت نموذجها المنشود الذى ينبنى على وضوح فكرى عقائدى مع قيم سلوكية سليمة تنظم عالم العلاقات سواء بين العبد وربه، أو بين الإنسان وأخيه الإنسان، أو بين الإنسان وموارد البيئة وخاماتها، ثم إنتاج مادى وفير متقدم ومزدهر فى المجال الصناعى، والاقتصادى والتكنولوجى ..وغير ذلك، حتى يتخذ ذلك صفة العالمية، وتكون الأمة فاعلة ومؤثرة فيما حولها من الأمم.

• مقومات المشروع الحضارى:

إن قوانين علم الاجتماع تخبرنا بأن أى مشروع حضارى حتى يكتب له النجاح فى الواقع، لابد له من مقومات، بل حتى يمكن أن نطلق عليه مشروعًا حضاريًا بالأساس، ونستعرض هنا أهم هذه المقومات، والتى يمكن على أساسها الحكم على أى مشروع حضارى، ومعرفة مدى صلاحيته وفرص نجاحه:

المقوم الأول: الفكرة المركزية:

إن أهم مقومات أى مشروع حضارى حقيقى أن يكون له فكرة مركزية، وهى عبارة عن المبدأ الأساس الذى يتبناه مجتمع ما، وينظم حياته تبعًا لتعاليمه، وتصاغ على أسسه كل مظاهر الحياة بداخل المجتمع، فيصبح هو محور هذا المجتمع والمحرك الرئيس له، والمحدد لكل عقائده، وقيمه وأفكاره وسلوكياته وأعماله[1].

وعلى سبيل المثال: إذا نظرنا إلى ذلك التغيير الجذرى الذى أحدثه المسلمون فى الجزيرة العربية، ثم فى بقية أركان المعمورة، لوجدنا أن الفكرة المركزية التى أحدثت كل ذلك هى

(١) نهضة أمة – هشام مصطفى عبد العزيز.

فكرة الإسلام، وكذلك الحراك الذى أدى إلى قيام الإتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية هى الفكرة الشيوعية، وأما الحضارة الغربية فقد اتخذت من الليبرالية فكرتها المركزية، وفى ذلك يقول مالك بن نبى عن الحضارة إنها "إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدفعة التى تجعله يدخل التاريخ[1].

ويقول الدكتور جاسم سلطان الفكرة المركزية، هى فى جوهرها مجموعة من المسلمات والعقائد التى يبنى عليها نظام القيم، ويصطبغ بها نظام المجتمع»[2].

ويذهب كثير من المفكرين إلى أن الفكرة المركزية التى تقوم عليها الحضارات هى فى الغالب الفكرة الدينية، وذلك على اعتبار المعنى الشامل للحضارة بمعناها الإنسانى، الذى يرمى إلى تحقيق رفعة الإنسان، والسمو به نحو الأخلاق الفاضلة والحياة الكريمة.

يقول «أرنولد توينبى» ولا يسع كاتب هذه الدراسة إلا أن يعترف بقناعته بهذا الرأى الذى هو أميل إلى مناصرة فكرة دور العقائد الدينية فى مجريات التاريخ، فإذا ما ألقينا ببصرنا على الحضارات التى ما برحت قائمة حتى يومنا الحاضر، نجد أنه يكمن وراء كل منها نوع من العقيدة الدينية العالمية.. وعلى هذا النحو تصبح العقيدة الدينية جزءًا من نظام الاستيلاد الحضارى»[3].

ويقول أيضا أعتقد أن أسلوب الحضارة هو التعبير عن ديانتها وأوافق كل الموافقة على أن الدين كان مصدر الحيوية التى أدت إلى وجود الحضارات، وحافظت على وجودها.. ولا محالة أن الحيوية الاجتماعية والتوافقية اللتين جعلتا هذا التعاون ممكنا قد نشأتا من الإيمان الدينى الذى يشترك فيه المقودون مع القادة، ولابد أن هذا الإيمان كان القوة الروحية التى جعلت بالإمكان إنجاز الأعمال الاقتصادية الأساسية العامة التى أنتجت الفائض الاقتصادى.

ويقول مالك بن نبى «فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغى أن نبحث فى أى حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى بعثها، ولعله ليس من الغلو فى شىء أن يجد التاريخ فى البوذية بذور الحضارة البوذية، وفى البرهمية نواة الحضارة البرهمية[4].

(١) مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى – مالك بن نبى.

(٢) قوانين النهضة – د/ جاسم سلطان.

(٣) مختصر دراسة التاريخ – أرمولدنويث.

(٤) مالك بن بنى – شروط النهضة.

ولعل ما نراه اليوم من آثار مصرية عظيمة، معابد وأهرامات شامخة، معبرة عن حضارة فرعونية عظيمة، هى أحد مظاهر تدين الشعب المصرى، حتى قبل نزول الأديان السماوية، وكما كانت أيضا الأمة العربية مشتتة ومتفرقة ولم يكن لها حضارة أو حتى كيان واحد على الرغم من وجود كل مقومات التجمع الأرضية من وحدة الأرض واللغة، والثقافة والتاريخ، والمصالح..، فإنها كانت قبائل متناثرة متناحرة تأكلها الحروب والاقتتال، وجاهليتها التى كانت تعيش فيها، فجاء الإسلام ورفعها، لا أفرادًا ولا قبائل، ولكن أمة هى أعظم أمة فى التاريخ، بشهادة الله مخرجها إلى الوجود، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

• **مواصفات الفكرة المركزية الناجحة:**

١ – أن تكون متوافقة مع منظومة القيم الإيجابية المترسخة والمتجذرة فى وجدان المجتمع، والتى كونت هويته وثقافته عبر تاريخه الطويل، حتى وإن علاها الصدأ، فقد تحتاج إلى نفض الغبار عنها، وإحيائها من جديد، وذلك حتى لا تحدث مقاومة من المجتمع لهذه الفكرة.

وفى هذه السياق يقول الدكتور جاسم سلطان «إن علماء الإدارة حين يتحدثون عن التنمية والتغيير فى المنظمات والمؤسسات والدول ينصحون بأن يكون متفقًا مع المنظومة القيمية الأساسية داخل هذه المنظمة، وأنه فى حال اختيار منظومة قيمية نقيضة للمنظومة السائدة فى هذه البيئة، فإن حركة المقاومة ستكون أشد وأعنف[1]»

ومن هنا يجب أن تكون الفكرة المركزية من صميم المجتمع ولا تتعارض مع ثقافته وهويته.

٢ – أن تتجسد تلك الفكرة فى عقيدة واضحة قادرة على صبغ كل مجالات المجتمع بصبغتها، بحيث تصوغ بمبادئها وقيمها كل آليات الحياة فى المجتمع، من سياسة واقتصاد وتعليم وإعلام..، وشتى مناحى الإنتاج[2]

٣ – بها من المرونة ما يجعلها قادرة على التعامل مع مستجدات العصر، والمتغيرات المستمرة لأن الحضارات المستقرة هى التى تدوم لمئات السنين، وخلال ذلك يجد من القضايا العصرية ومسائل النوازل ما لا يمكن أن يحصيه العد، فلابد أن تكون الفكرة

(١) قوانين النهضة – د/ جاسم سلطان.

(٢) نهضة أمة – هشام مصطفى عبد العزيز.

قادرة على استيعاب كل تلك المتغيرات والمستجدات، بحيث ينبثق منها قيم ومبادئ صالحة لمعالجتها.

وعلى ذلك تتكون الفكرة المركزية الناجحة من جزءين رئيسين:

١ – مكون ثابت صلب لا يتغير: وهو الذى يميز الفكرة ويعطى لها وصفها الخاص بها، وهو ما يتعلق بالعقيدة أو الايدولوجيا.

٢ – مكون مرن: وهو الذى به تستطيع أن تستجيب الفكرة المركزية لاحتياجات المجتمع وخصوصياته، وهو ما يتعلق بنظام الحياة[١].

المقوم الثانى:الحافز أو الفكرة المحفزة:

لكى يتم حشد الناس وجمعهم الناس حول المشروع الحضارى لابد من وجود فكرة محفزة تنطلق من الفكرة المركزية وتمس حياة الناس وتخاطب الدوافع النفسية والعميقة التى أودعها الله تعالى فى نفوسهم، بحيث تصبح الفكرة المحفزة هى المحور الذى يلتف الناس حوله، ويدفعهم إلى التحرك لتحقيق المشروع الحضارى، يقول مالك بن نبى «إن المعجزات الكبرى فى التاريخ مرتبطة دائمًا بالأفكار الدافعة».

يذكر د/جاسم سلطان إن الفكرة المركزية وحدها ليست كافية لتحريك الجماهير، بل لابد أن يصحبها فكرة محفزة من صلب الفكرة المركزية وتبنى على تراثها، فموسى عليه السلام حرك قومه للخلاص من الاضطهاد بحلم الوصول إلى أرض فلسطين، والرسول ﷺ يحرك العالمين للخروج من الاستبداد إلى عدل الإسلام.

والثوار والمصلحون حركوا شعوبهم من خلال تبنى قضايا مستقرة فى احتياجات المجتمع، وصاغوا منها خطابا حاشدًا للطاقات، فهذا «مارتن لوثر» يقود حركة السود فى أمريكا بطرح مطالب يستشعرها السود، وتنفق مع قيم المجتمع الأساسية، وهى قضية المساواة، وقل ذلك عن "نيلسون مانديلا" وعن حركات التحرير وحركات التنمية المركزية فى الصين، حيث الشعور القومى يطالب بصين موحدة مكتفية حرة لها مكانتها بين الدول[٢].وهذا موهنداس كرمشاند غاندى المعروف باسم «المهاتما» أى الروح العظيمة، هو ملهم حركة التحرر الهندى ضد الاستعمار البريطانى، وعلى الرغم من انتسابه إلى عائلة ثرية وحاكمة فى الهند فإنه ظل طوال عمره مدافعا عن الفقراء والمهمشين والمنبوذين.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) د/ جاسم سلطان – المرجع السابق.

أمثلة للفكرة المحفزة :

١ – الفكرة التى حرك بها الرسول ﷺ جماهير العالم للالتفاف حول الإسلام، والتى عبر عنها ربعى بن عامر ﷺ بقول «الله ابتعثنا والله جاء بنا، لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

٢ – وكانت الفكرة المحفزة للشيوعين مثل (نريد خبزا)، (اتحدوا ياعمال الأرض).

٣ – اليهود فى فلسطين طرحوا شعار «فلسطين أرض الميعاد».

المقوم الثالث: القيم والثقافة:

القيم والثقافة منبثقة من الفكرة المحفزة وهى أسلوب الحياة وترجمة الفكر والتى سيتحرك من خلالها أفراد المجتمع فى عالم الواقع ويتميز بها.

والقيم هى مجموعة المبادئ التى يؤمن بها أفراد المجتمع، وتمثل ثقافات راسخة تحكم سلوكهم، وتنظم علاقتهم ببعضهم، وعلاقتهم بالموارد الموجودة، فى ذلك المجتمع[٢].

والقيمة فى حد ذاتها،هى السبيل لمعرفة الخير والنفع وتمييز الشىء الجيد من الردىء.

ويقول مالك بن نبى «الثقافة إذا تعرف بصورة علمية على إنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولى فى الوسط الذى ولد فيه، والثقافة على هذا هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.. والثقافة لا يسوغ أن تعتبر علمًا يتعلمه الإنسان، بل هى محيط يحيط به وإطار يتحرك داخله يغذى الحضارة فى أحشائه.

فهى الوسط الذى تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعًا للغاية العليا التى رسمها المجتمع لنفسه بما فى ذلك الحداد والفنان والراعى والعالم والإمام، فالثقافة هى تلك الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة، وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة وبعبارة جامعة، هى كل ما يعطى الحضارة سمتها الخاصة.

---

(١) تاريخ الطبرى.

(٢) هشام مصطفى عبد العزيز – المرجع السابق.

وإذا ما أردنا إيضاحا أوسع لوظيفة الثقافة فلنمثل لها بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكرات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح فى سائل واحد من البلازما ليغذى الجسم، فالثقافة هى ذلك الدم فى جسم المجتمع يغذى حضارته، ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة»[1].

وعلى سبيل المثال: إذا كان مجتمع يؤمن بقيمة الوقت فإن ذلك الإنسان الذى يحيا فى هذا المجتمع سيحسن استغلال الوقت المتاح له أفضل استغلال، ويختلف سلوكه اختلافا جذريًا عن ذلك الإنسان الذى يحيا فى مجتمع لا يقدر قيمة الوقت، وقس ذلك فى تقدير قيم العمل والعلم والتميز والإبداع والجمال، وأضداد ذلك من القيم السلبية.

ومن منظور الحضارة الإسلامية فإن للقيم مكانة سامية، يوضح ذلك الدكتور عبد الكريم بكار فيقول «للخلق الكريم والفضائل النفسية مكانة عظمى فى الإسلام، إذ أن المجتمع بلا أخلاق أقرب إلى الغابة منه إلى شىء آخر... وتمثل الأخلاق والقيم السائدة فى مجتمع ما انعكاسا مباشرًا لعقيدة المجتمع... إن الأخلاق السامية تساعد المجتمع على تجاوز الكثير من محنه وأشكال معاناته، فإن أزمات المجتمع الفكرية والسياسية والثقافية والتربوية والاقتصادية، وما يتحصل منها من وعى المجتمع بذاته تنعكس بصورة واضحة على أخلاق الناس وترتيب سلم القيم لديهم.

وتنبع أهمية القيم من أنها تضبط سلوك الفرد من الداخل، حيث تقصر الأنظمة والقوانين والأعراف عن ضبط تصرفات الإنسان فى خلواته وشئونه الخاصة، كما أن النظم والأعراف والتقاليد لا تستطيع، مهما كانت دقيقة وشاملة وواضحة، أن تغطى كل مساحات حياتنا الاجتماعية، ومن ثم فإن وظيفة الخلق الكريم أن يردع أصحابه عن استغلال مساحات «لفراغ القانونى» على وجه سيىء يضر بالفرد نفسه أو مجتمعه، وهاتان الوظيفتان الاجتماعيتان للأخلاق لا يمكن أن يقوم بهما أى نظام أو سلطة أو علم أو عقل، إذا ما عجزت أخلاق الفرد عن القيام بهما ومن هنا فإن الأخلاق الشخصية والاجتماعية والحضارية جميعًا تشكل لدينا جزءا مهمًا من منظومتنا العقدية والفكرية والرمزية، فالمسلم حين يقف موقفًا خلقيًا يؤدى عبادة لله تعالى، وحين يقف موقفًا لا أخلاقيًا يشعر بالذنب والتناقض والجور النفسى[2] ويذهب بعض علماء الاجتماع إلى أهمية دور القيم الدينية فى إحداث عملية الإصلاح الاجتماعى، كما يقول الدكتور محمد أحمد بيومى، تحت عنوان

(١) شروط النهضة – مالك بن نبى.

(٢) من أجل انطلاقة حضارية شاملة – عبد الكريم بكار.

«القيـــم الدينية والتغيير الاجتماعى» ويرى فيـــبر «أن القيم تتحول فى الحياة اليومية إلى اتجاهـــات توجـــه الحياة طبقًا للمثـــل الدينية، ويحدث التغيـــير الاجتماعى»[1].

ولا أدل علـــى أهميـــة القيم والأخلاق، مما بعث به الرســـول ﷺ حيث قال: إنما بعثـــت لأتمم مكارم الأخلاق»، كمـــا أن القيم تغذى الضمير، والضمير دائما ما يبحث عنها.

وأخيرا إن القيم والثقافة طريق الحضارة وأسلوب يؤثر فى شخصية الفرد والمجموع، لتصبح الحضارة الجزء المزدهر من الثقافة.

المقوم الرابع: الإنتاجية:

يقـــول مالك بن بنى «إن توجه العمل فى مرحلة التكوين الاجتماعى بعامة يعنى ســـير الجهود الجماعية فى اتجاه واحد، بما فى ذلك جهد الســـائل والراعى وصاحب الحرفة، والتاجر والطالب والمعلم والمرأة والمثقف والفلاح، كى يضع كل منهم فى كل يوم لبنة جديدة فى البناء».

إذا مـــا صلحت أفـــكار المجتمع وعقائده وتولد عنها قيم وثقافات حاكمة للعلاقات كان من الضرورى أن ينعكس ذلك على العمل والإنتاج المادى واستغلال الموارد، فالإنتاجية هى التنمية الحتمية لاكتمال ثلاثية الفكرة المركزية والفكرة المحفزة، والقيم والثقافة، فالإنتاجية هى الثمرة النهائية للمشروع الحضارى، وحينما تكون دائمة وشاملة ومتطورة، ترتفع بمستوى الحياة بل وتقفـــز بالدولة والمجتمع إلى مصاف الريادة والقيادة، والإنتاجية بمفهومها العام الواســـع هى جزء أساسى من التكليف الربانى حين قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: آية ٦١].

ولقد أخذ المصريون الأوائل الســـبق فى الإنتاجية عندما أقاموا أول حضارة فى التاريخ أخذ وتعلم منها العالم.

كمـــا قدم المســـلمون الأوائل أروع الأمثلـــة فى الإنتاجية عندما أقامـــوا حضارتهم على فكرة الإسلام المركزية، حتى صنعوا تقدما وحضارة كانت هى أساس نهضة أوروبا حديثا.

ولبيان أثر الإنتاجية البالغ فى قيام الحضارات نسوق الأمثلة الآتية:

---

(١) علم اجتماع القيم – محمد بيومى.

١ - التجربة الألمانية:

«إن الحرب العالمية الثانية خلفت وراءها ألمانيا عام ١٩٤٥م قاعًا صفصفًا، حطمت فيها كل جهاز الإنتاج، ولم تبق لها من شـيء تقيم على أساسـه بناء نهضتها، وفوق ذلك فقد تركتها لتصرف شئونها تحت احتلال أربع دول، فلما بدأ النشاط يسرى فى نفس الشعب الألمانى فى مستهل سنة ١٩٤٨م كان ساعتئذ فى نقطة الصفر من حيث المقومات الاقتصادية الموجودة لديها.

وبعد عشـر سـنوات تقريبًا رأينا معرض ألمانيا يفتح أبوابه فى القاهرة فى شـهر مارس ١٩٥٧م، فتذهلنا المعجزة، إذ ينبعث شعب من الموت والدمار، وينشئ الصناعات الضخمة التى شاهدناها.

ولو أننا حللنا تلك المعجزة، لوجدنا فيها عوامل شـتى لا سبيل إلى إنكارها، من بينها الاقتصاد فى الجهاز الإدارى، وفى التكاليف الإدارية فقد أصبح الكثير من أعمال الحكومة يقوم به أفراد الشعب كواجب عليهم، ولكن العامل المهم من هذه العوامل جميعها هو الزمن.

فقد فرضت الحكومة عام ١٩٤٨م، على الشـعب الألمانى كله، نسـاء و أطفالاً ورجالاً، التطوع يوميًا سـاعتين يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومى بالمجان، من أجل الصالح العام فقط وكان هذا هو سبب المعجزة التى أتت بها ألمانيا»[1].

٢ - اليابان بعد الحرب العالمية:

لقـد لحق باليابان دمار عنيـف للغاية، فلقد قذفت الآلة العسـكرية الأمريكية اليابان بالقنبلة الذرية، فاسـتقبلت قنبلتين ذريتين فى هيروشـيما وناجازاكى أدتا إلى مقتل مئات الآلاف من البشـر وإحداث الكثير من التشـوهات والعيوب الخلقية، مما كان له بالغ الأثر فى تدمير الشعب اليابانى وقتها والأجيال التى تليه، فكانت كارثة بشرية محققة.

"ولكن كنظيره الألمانى كان الشـعب اليابانى يتصرف من خلال عقيدة راسـخة، وفكرة عميقـة فى وجدانهم من وجهة نظرهـم كان اليابانيون يؤمنون بالديانـة البوذية الوثنية، ويعتقـدون بتعليمات إلههم الوثنى بوذا، والتـى تقول لهم: كى ترضى بوذا فعليك بالعمل والعمل والعمل. ولهذا، فبعد الحرب انتقل ملايين اليابانيين من ميادين القتال إلى ميادين العمـل، إلى المصانع، إلى الحقـول، إلى المختبرات، ليكدوا ويتعبـوا ليبتكروا ويخترعوا،

(١) مالك بن نبى – مرجع سابق.

ويحققوا أمل أمتهم فى النهوض من القاع إلى القمة، وليجعلوا اسم (صنع فى اليابان) ينتشر فى بقاع المعمورة، بل ويكون علامة على المتانة والجودة، هذا الإيمان العميق جعلهم لا يخجلون من السفر إلى عدوهم الذى أسقطهم أرضًا بقنابله الذرية، لكى يأخذوا عنه العلم والتكنولوجيا ويطوروها، لتتحقق لليابان، نهضة صناعية جبارة، وضعتها فى مقدمة مصاف الدول الصناعية الكبرى فى العالم.

ولقد كانت صادراتها عام ١٩٥٢م تساوى صفرًا، فبلغت عام١٩٧٠م ٣,٨ بليون دولار، وفى عام ١٩٩١م ٣٨٦ بليون دولار وهكذا كانت الفاعلية الفردية وإنتاجية الأفراد والتوافقية الجماعية من أحد أهم العوامل فى بناء الحضارات والمجتمعات المتقدمة»[١].

٣ - فرنسا والمستنقعات:

لقد قامت فرنسا عام ١٨٥٠م بغرس الأشجار فى الناحية الجنوبية الغربية من البلاد، حيث كانت رمال الشاطئ الأطلنطى والمستنقعات الضارة تهدد مصالح أهلها وصحتهم، ولكن سكان تلك المنطقة انطلقوا بهمة وصبر، يوقفون الرمال عند حدها، وتكبدوا فى سبيل ذلك ما تكبدوا، وقضوا عشرين سنة يسدون الطريق على الرمال من مدينة بوردو إلى مدينة بيارينز فانتصروا على الرمال التى أرادوا صدها وكانت نتيجة انتصارهم أبعد مما كانوا يتوقعون، فقد كانت تلك المنطقة أفقر المناطق و أضرها على الصحة فى فرنسا، فأصبحت بما تمتعت به من أشجار كثيرة ذات حركة اقتصادية ممتازة، إذ أصبحت أول منتج فى العالم لزيت «التريبنتين» المستخرج من تلك الأشجار وأصبحت ملجأ صحيا للمرضى من جميع أنحاء العالم»[٢].

• إذن من أين تكون البداية:

أعتقد أن الشعب المصرى، بعد قيامه بثورتين، مع تنوع دوافعه و توجهاته فى كل منهما، ووجود مؤيدين للأولى ويعارضون الثانية، ومؤيدين للثانية يعارضون الأولى، وهذا شىء طبيعى لثورتين أسقطتا نظامين خلال فترة وجيزة، فكل نظام له مؤيدوه وأعوانه ومصالحه، ولكن كون الشعب قد ثار على هذا فترة من الزمن وذاك فى فترة أخرى، فهذا يدل على أن الشعب المصرى قادر على توصيف الحالة المصرية، وما آلت إليه الأمور،

(١) نهضة أمة – هشام مصطفى عبد العزيز.

(٢) مالك بن نبى – شروط النهضة.

ويعى تمامًا حجم المشاكل والأخطار الداخلية والخارجية، ولقد ضاق ذرعًا بالفساد والظلم والانحدار بالسلطة والتفريط فى حقوق البلاد والعباد، وهذا ليس بجديد على الشعب المصرى، فتلك هى صفاته وعاداته، وأنه لا يريد عن التقدم ورفعة الوطن بديلاً، ولعل توصيف الواقع المصرى هو ما يجعلنا نخوض فى البحث عن أسباب ثورتيه الأخيرتين التى هى كثيرة ومتشعبة، وإذا كان الهدف من هذا البحث هو توعية الشعب بها والوقوف عليها لإيجاد الحلول المناسبة، فإذا كان الشعب قد ثار بسببها، إذن هدف التوعية هو رجوع إلى الوراء، ومع ذلك تحدثت فيها الكثير من الكتابات للتوعية و التأريخ، ولكنا نريد طرق أبواب التقدم، لذا سنترك ما هو معروف لنستدرك ما هو غير معروف، أو معروف ولكنه غير مألوف، ولكنى أقف الآن موجها رسالتين الأولى: إلى نظام ما قبل ٢٥ يناير، «إن الظلم ظلمات يوم القيامة»، (إن مصر أعزها الله وباركها بالأنبياء، ترفض الخضوع والخنوع والانتكاسة).

أما الثانية إلى نظام ما قبل ٣٠ يونيه «إن الله لينصر بالوسيلة كما ينصر بالغاية» إن الدين لن ينتصر بالتكفير والتفجير أو حتى بالحصول على السلطة»، «إن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

أما عن الشهداء فهم ماتوا بشرف وفى أعلى مراتب الجنة إن شاء الله ولأهلهم الصبر والسلوان.

لن يستطيع أحد أن يحتكر الدين، ولن يستطيع أحد أن يحتكر الوطن، كن مع الثورة أو حتى ضدها، لكن لا تكن ضد الوطن، اكره القيادة السياسية، أو اعترض على الحكومة، لكن لا تكره الوطن.

إن مصر لها أبناؤها الذين يعرفون قدرها ويعشقون ترابها ولن يتوانوا أو يتهاونوا فى بذل النفس والنفيس من أجل بنائها.

ومن يقف ضد الوطن سيشهد ضده التاريخ ولن يجنى سوى خسران الوطن ومن قبله الدين، فحب الأوطان مبدأ راسخ فى الإسلام، ولا أدل على ذلك من حديث رسول الله ﷺ وهو القائد والقدوة – حين قال فى حب وطنه (مكة) «ما أطيبك من بلد وأحبك إلى، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك»[1].

(١) صحيح الترمذى ٣٩٢٦.

وقال الفاروق عمر ﷺ «لولا حب الوطن لخرب بلد السوء».

أمـا من يتوهم أنه قادر على أن يقف ضد تقـدم الوطن فهو حقًا واهم، فإذا ما انطلقت عجلة التقدم بإرادة شعبية وسياسية واعية اندثرت تحتها كل معارضة، ولن تكون إلا ككومة قش تعترض السيل المنهمر.

وعلى كلٍّ إذا كانت هذه هى إرادة التغيير التى أرادها الله وأعان الشعب المصرى عليها، فإن الله قادر على إعانة مصر بشـعبها وأبنائها على تخطى المحنة، وسلوك سبل التقدم، نعـم إن مصر قادرة على تخطى تلك المراحل والتطلع إلى المسـتقبل بفضل الله ثم أبنائها، أبنائها الذين هم ثروتها الحقيقية، الذين صنعوا التاريخ والحضارة قديمًا وسيعيدون صياغة الحاضر والمسـتقبل لصنع حضارة مصر الحديثة، ومن هنا لابد أن يدخل الشـعب المصرى والقيـادة فـى تحد، تحد مع الفسـاد وضعف الأمـن والفقر و الجهل والأميـة، والبطالة والبيروقراطية والعشـوائيات والتبعية، والتفكك العربى، وسـد إثيوبيا والمؤامرات الداخلية والخارجية، تحد مع المعوقات والمصاعب، تحد مع الضعف والكسـل والإهمال والاعتماد على الغير.

لابد أن تستنهض الهمم، وتستفيق العقول، وتقوى القلوب والعزائم، وتهب الأسود من عرائنها لتسـتعيد مكانها التى فرطت فيه، فلنعكس التحديات ونحولها من وسـائل ضغط إلى مصادر قوة، ولنسـتخرج مـن تحدياتنا إبداعنا، ومن معوقاتنـا إرادتنا، نقف بأقدامنا على المصاعب لنبنى الطموح والآمال، ناظرين إلى مسـتقبل مشـرق، صانعين حضارة مصر الحديثة، وإذا كانت الحضارة هى مرحلة متأخرة من مراحل التقدم، فإن الحضارة والتقدم هم فى الأصل صنيعة الشعب المصرى – صاحب أقدم حضارات العالم – صنيعة فكره ونتاج عقله وعقيدته والتزامه وعمله.

ومن هذا المنطلق علينا استدعاء الماضى والتاريخ العظيم، استدعاء مجد الأجداد، ولننظر مـاذا كنا، وماذا نحـن الآن وماذا نريد أن نكون، فلنعيد تقييم الأمور والأوضاع لنقف على بواطن الخلل والقصور، وننظر فى الأفكار والعقائد، وننظر فى القيم والمبادئ، ونقدر معنى الوطـن وحجـم ثرواته، ونقدر قيم العمل والإنتاج لننطلق مـن تلك الوقفة نحو صنع التقدم و الحضـارة، ومن هنا فلنعد إلى آثارنا وحضارتنـا، فهى مراكز قوتنا وفيها عظمة تفردنا، فلقـد ترك لنا أجدادنا عبر مراحل الزمن الكثير مـن الآثار العظيمة المعبرة عن الحضارات

الفرعونية والقبطية والإسلامية ولكنا أهملناها، فلننفض عنها الغبار، ونعيد إليها وجهها الحقيقى، ونبرز عظمة جمالها، ليظهر ماضى الأجداد العظيم مقارنًا ومتسائلا، هذه حضارة صنعها الأجداد، فماذا سيصنع الأحفاد للحاضر والمستقبل...؟

وأعتقد أن إعادة إظهار تلك الآثار العظيمة و هذا التراث القيم ليست بالتى تتطلب التكلفة الكثيرة، وإن كان ذلك فلندعو إلى مبادرة، يتكاتف فيها الشعب المصرى مع الدولة تهدف إلى ذلك، ولأن القيادة تبدأ من رأس الهرم، فلتبدأ الدولة.

ويتزامن مع ذلك قيام الدولة بإعادة إحياء وتطوير ميدان عام فى كل محافظة لإظهاره فى أروع صورة، ووضع فيه رمز كبير وعظيم يرمز للمحافظة، وبه لوحة إلكترونية عظيمة عليها صورتا الميدان قبل وبعد التطوير، لتكون محفزًا للمصريين، مكتوب فى أعلى اللوحة الإلكترونية (معًا للتقدم) وفى أسفلها (مصر بالمصريين).

وفى هذه الأثناء يتم تطوير جميع المناطق الأثرية على مستوى الجمهورية وإعادة إحياء التراث المصرى، الفرعونى والقبطى والإسلامى والخديوى (وسوف نتحدث فى معرض الباب الثانى من الكتاب عن رؤية لتطوير السياحة فى مصر).

ويتزامن مع ذلك أيضا حملة إعلامية موسعة ودائمة ومتطورة عنوانها:

(معًا للتقدم – مصر بالمصريين) وفيها دعوة للشعب المصرى إلى التكاتف مع قيادته لبناء مصر لتكون فى وضع يليق بعظمة مصر والمصريين.

ويتزامن مع ذلك أيضًا تشجيع الكثير من المبادرات، إعلاميًا وسياسيًا، فليكن هناك مبادرة رجال الأعمال فى كل محافظة عن طريق جمعيتهم والغرف التجارية يقدمون فيها الدعم المادى والفنى بالتنسيق مع المحافظ من أجل البناء والنهوض بالمحافظة فى ظل الرؤية العامة للدولة.

وكذلك مبادرة الإعلاميين والفنانين، والمثقفين والرياضيين والشباب والنساء.

ليكون هناك مبادرة مصر بالمصريين للقضاء على العشوائيات، مصر بالمصريين للقضاء على الفقر، مصر بالمصريين للقضاء على البطالة..، وتكون أيضًا لشركات الدعاية والإعلان دور فى تلك المبادرة فتقوم بالتبرع ببعض اللوحات الإعلانية فى الطرق والشوارع تدعو فيها كل المصريين للتكاتف وتحثهم على العمل، والحرص على الوقت والقيم الإنسانية وتعرض بعض جوانب رؤية وطموحات الدولة لتضع الرسالة والهدف أمام المواطنين.

وكذلك مبادرة العمال فى القطاع العام والخاص بالتنازل عن أجر يوم من المرتب كل شهر لمدة عام من أجل المساهمة فى بناء وطنهم، الذى هو مصدر قوتهم وبرفعته ترتفع دخولهم وأحوالهم، إن تلك المبادرات تدعم الإيجابية والفاعلية وتقضى على الإحساس بالسلبية والتوكل على الحكومة فى كل شىء.

ويساهم فى هذه المبادرات ويدعمها ويدعو لها ويساندها بجانب المؤسسات الأخرى، الأزهر والكنيسة.

ويتم مع ذلك أيضًا دعوة أحزاب مصر، إلى تبنى مبادرات فعلية تساهم فى بناء مصر وتثبت من خلالها لأبناء الشعب المصرى أنها تعمل لمصلحته وتبرز حقيقة أنها تسعى إلى السلطة والسياسة بالعمل والمجهود والتأييد الشعبى، فعلى كل حزب أن يبحث فى قدراته الحقيقية التى يمتلكها وعن الأشياء التى يحسن القيام بها فتميزه، فيقوم بتقديمها إلى الناس، وهى تخص جوانب حياتهم وتمس اهتماماتهم اليومية، فيشعر الناس بوجود تلك الأحزاب، فيحدث التآلف والتأييد فيصب كل ذلك فى رفعة المجتمع وبناء الوطن، وهذا هو الهدف الذى تسعى إليه السلطة والأحزاب والشعب.

وتساهم أيضًا فى ذلك الجمعيات الخيرية ومؤسسات المجتمع المدنى، يجب أن يرى المواطن المصرى أينما اتجه بنظرة لافتات وصور تحمل مبادئ وأفكار تعبر عن عظمة مصر والمصريين، مثل مصر منبع الحضارات، ومهبط الديانات، أرض الكنانة، جنة الله فى أرضه، مصر الأصالة والعراقة والتاريخ، مصر للمسلم والمسيحى مصر، الكنيسة والأزهر، مصر شرفها القرآن، مصر الأمن والأمان، مصر أم العرب، أم الدنيا، معًا للتقدم معًا للحضارة، مصر بالمصريين.

كما يشاهد أيضًا عن طريق شاشات عرض فى الشارع إن أمكن صور لمصر الفرعونية وعظمة المصريين وكذلك مصر القبطية التى عاش بها المسيح ومريم، وأيضًا مصر الإسلامية وروعة الإسلام يشاهد تراث تلك الحضارات عبر التاريخ فى مضمونها دعوة وسؤال ماذا سيفعل المصريون اليوم، وهم أول أمة، وأول دولة، وأول حضارة، وأول إمبراطورية عرفها التاريخ، لاستكمال البناء ومواصلة التقدم والريادة؟!

كما يشهد أيضًا صورا لحرب أكتوبر، بما فيها من مشاهد بطولية عظيمة تستدعى بسالة وعزيمة المصريين لاستعادة روح الجماعة.

ولعلماء الدولة ومفكريها ومثقفيها دورًا حيويا ومهم فى ضبط مسارات التقدم، فى ظل الرؤية العامة للدولة وبما يتفق مع فكر وهوية وثقافة الشعب المصرى وموروثاته، وأيضًا فى تجييش جموع الشعب المصرى لخيارات المشروع الحضارى وتحفيزهم من أجل الإنجاز.

إذن يجب علينا أن نعيد فتح متحف الحضارات المصرية ليكون باعثًا لنا على بناء حضارة المستقبل، حضارة تتوافق مع متطلبات العصر ومتغيراته.

• **الأساس المتين للمشروع الحضارى:**

لمشروعنا الحضارى أساس ودافع فى نفس الوقت، وهو"العمل" الذى به يتم إعمار الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: آية ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١٠٥].

وقال أيضا ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[سورة الأعراف: آية ١٢٩] وغيرها من الآيات الكثيرة، والعمل فى حد ذاته نوع من العبادة، ومن هنا يكون كل عمل لتنمية المجتمع وزيادة إنتاجيته عبادة وقربة إلى الله، فمن زرع زرعًا أو غرس غرسًا، فله بكل ما يؤكل منه صدقة، ما ظل الناس به ينتفعون، ويقول تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: آية ٥٦]. وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل فى أوامره ونواهيه.

فإن الدين يدعو إلى العمل والإنتاج، ليعمر الكون، كما أنه دين وسط، بجانب الدعوة إلى العمل والإنتاج، يدعوا إلى التراحم والمودة، ليعيش الإنسان فى خير وسعادة عندما يعمر نور الإيمان قلبه، ويحصن نفسه ويهذب أخلاقه، فيحيا فى عمله، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة االمائدة: آية ٨٧]، وليس أبلغ من هذا موازنة بين المادة والروح وبين الدين والدنيا، فكما أن الالتزام العام بفروض الكفاية يؤدى إلى التضامن بين أبناء الأمة، كذلك فإن الإنسان بالعمل يكون قدوة للآخرين فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده (رواه البخارى).

ولكن الأمر لم يقتصر على مجرد العمل بل أوجب الإتقان فيه، وجعل الإتقان فى العمل من الصفات التى يحبها الله عز وجل، حين قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالى يُحِبّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ). (رواه البيهقى).

بل تعدى الإتقان أيضًا وزاد عليه إلى الإحسان، والإحسان هو الزيادة فى الإتقان، حين قال: ﷺ «إن الله كتب الإحسان على كل شىء» (رواه مسلم).

ومن هنا فإن تعاليم الدين تنطوى على قيم حضارية شاملة تربط وهى تطلب من الإنسان أن يتفكر ويتدبر فى السموات والأرض بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع، بين الثوابت النقلية و إعمال المرونة الفكرية والعقلية فى إحداث التطور، بين التلقى من الله والتوغل قدمًا فى مسالك الطبيعة وأغوارها، بين تحقيق مستوى روحى عال للإنسان على الأرض، وبين تسخير قوانين الرياضيات والفيزياء والكيمياء لتحقيق مستوى عال أيضا من التقدم والعلو الحضارى على المستوى المادى، بين روح التكافل والحرص على العمل، ولم يفصل القرآن يومًا بين هذا وذاك، إنه يقف دائمًا موقفًا شموليًا مترابطًا ويرفع الفصل والتقطيع وبذلك نصيب حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

إذن مبدأنا وحافزنا وفكرتنا المركزية، هى عقيدتنا السمحاء، وما أمرتنا به من العمل بإتقان، بل والإحسان فيه، وإذا كان العمل هو مضمون البناء، والبناء يعنى رفعة الوطن، ورفعة الوطن فيها تحقيق الثروة والرفاهية لكل مواطن، فالنتيجة الحتمية للعمل هو بناء مصر، مصر التى من أهم خصائصها أنها «ملكة الحد الأوسط» فى الموقع والموضع مما أهلها لتحمل رسالة الحياد الإيجابى للعالمين، ولعل فى هذا تطابق مع شريعتنا السمحاء التى هى «الوسطية والاعتدال»، والتى بوأت الأمة منزلة الشهادة على الأمم، فياله من جمع عظيم الشأن، لأمة عقيدتها الوسطية تعيش فى دولة هى ملكة الحد الأوسط، فما كان التشابه فى الألفاظ والصفات إلا لتشابه المضامين، ولعل وسطية الإسلام تلك، هى التى أوجبت الود بين المسيحيين والمسلمين وهى أيضًا بجانب حب الوطن صنعًا معًا التكاتف بين جموع الشعب المصرى فى ردع الطغاة والمستعمرين عبر التاريخ.

ففى مصر كلنا يعيش فى نسيج واحد متناغم نحمل معًا عبء مسئولية التقدم ونتحمل مشقة التطلع إلى المستقبل – هكذا أمرتنا الأديان – حقًا، لقد عمرت الدنيا بحب الأوطان، هكذا تحدث علىّ كرم الله وجهه.

لكل ذلك لا يليق بمصر ولن يقبل لها ولأبنائها إلا أن تكون بمأخذ الزمام العالمى.

استراتيجية التحرك فى المشروع الحضارى:

يجب أن يكون التحرك دفعة واحدة على كل المستويات وفى كل الاتجاهات ومن هنا تبرز المفاهيم والأدوار الآتية:

١ - النخبة:

وهم حجر الزاوية فى المشروع الحضارى فمنهم المرجعيات و القدرات الفاعلة التى تقود التيار وفقًا لمعالم الهوية المصرية، فدورها هو صياغة العقول والنفوس وفق معالم المشروع الحضارى.

ويجب أن يتوافر فى تلك النخبة صفتان رئيستان:

الأولى: نخبة متكاملة التخصصات:

من رجال الإدارة والسياسيين والاقتصاديين والفقهاء، القضاة، والأدباء والمفكرين، و الدعاة والعلماء والوعاظ والخطباء والصحفيين والإعلاميين، وغير ذلك من شتى التخصصات الإنسانية.

وهذا أمر بديهى بالطبع، إذ أن المشروع الحضارى الشامل لا يستطيع أن ينهض بعبئه إلا نخبة متكاملة التخصصات إذ هو إصلاح شامل لكل جانب من جوانب المجتمع.

الثانية: نخبة على مستوى تحديات المشروع الحضارى:

بحيث تكون قادرة على حيازة مراكز التأثير، والإمساك بزمام الإصلاح فى المجتمع بعد ما آل إليه المجتمع من سوء الأوضاع نتيجة لسيطرة النخب الفاسدة.

وهذا يفرض على أصحاب المشروع الحضارى جهدًا جبارًا يحاولون فيه الوصول إلى أقصى مستوى ممكن يمكنهم من أن يكونوا على المستوى التحدى الحضارى، تحد قائم على العلم والأخلاق يعيدون إلى المجتمع توازنه وتماسكه.

نخبة قادرة على أن تحلم بمشروع حضارى يليق بمصر، مؤمنة به ذات قيمة حقيقية للشعب والوطن وأن تعبر باقتدار عنه وأن تحفز الناس وتعبئ مشاعرهم للتحرك نحو تحقيق طموحاتهم المشروعة مستندين فى ذلك إلى الثوابت الشرعية ومستلهمين التراث وحكمة الماضى المتراكمة والحضارة المصرية وعظمة التاريخ، وتفهم الظروف والمعطيات التى

تحكم الحاضر، وتقديم صورة مقنعة ومحفزة للمستقبل الحضارى الذى يتعين السعى بدأب لبلوغه، ذلك سواء بالكلمة أو بالصورة أو بالحديث أو بالفعل والحركة.

نخبة قادرة على الدفاع عن الحق والخير والصالح العام قادرة بما تمتلكه من علم وعقل وإرادة على تحويل المثالى والمطلق إلى واقعى وممكن، قادرة على تحويل الآمال والأحلام إلى واقع وحقائق، فهؤلاء هم الضمير الجمعى المسئولون عن الشعب وعن أنفسهم.

والذين يملكون الثقافة العالية والنظرة الناقدة والرؤية الملهمة، رؤية تضع نصب أعينها المدى الطويل وليس فقط أن تقتصر على النظر للزمن القصير وأن تطرح حلولا كلية متكاملة قائمة على منهج علمى رصين، وليس حلولا ترضى أصحاب الأصوات العالية وتنبنى على الفهلوة والتدليس، فالنخبة الحقيقية هم مفكرون يجيدون التأمل وإبداع الحلول وامتلاك الرؤية الشاملة المتعمقة، قادرون على صياغة المشروع الحضارى وعرضه للحوار العام بموضوعية وتجرد وبعد عن الانتهازية وتحقيق المكاسب الشخصية، واستغلال جهل الناس والتلاعب بأفكارهم ومشاعرهم وفرض الأفكار دون السماح بقدر من الحوار والمعارضة حتى لا تبزغ فوضى تنتشر فيها اهتزاز للقيم الإنسانية ويختلط فيها الحق بالباطل والمشروع بغير المشروع والعام بالخاص، فذلك يطعن بالحقيقة ويغذى النفاق ويهدم كيان المجتمع الأخلاقى والثقافى والسياسى، ولندرك أنه فى الفترات الانتقالية حيث تهتز القيم ويتدهور المستوى الأخلاقى العام وتضعف مفاهيم الانتماء والترابط والتماسك الاجتماعى ويحدث الاضطراب الأمنى والذى ينعكس بدوره على الوضع الاقتصادى، تظهر الحاجة بشكل أكثر إلحاحا إلى دور النخبة فى إعادة الاعتبار لتلك القيم وصياغة معاييرها وتعبئة المشاعر حول النهوض بها وإعادة تأكيد قيم لا ينازع فيها عاقل فى أى مجتمع مثل، الفهم الصحيح للدين والوقوف على الغايات والأهداف بالوسائل السليمة، وإيقاظ الوعى والضمير لتدبر أحكامه، واحترام القانون، والحرص على النظام العام وتقوية الانتماء الوطنى، ونبذ العنف والإرهاب والعودة إلى القيم السليمة، وتصحيح المفاهيم، ومحاربة الفساد والمحسوبية والاستهلاك وعدم الكفاءة وترسيخ الديمقراطية ونشر اللامركزية واحترام حقوق الإنسان والتضامن المجتمعى والتحديث والتطوير المتواصل لهياكل المجتمع ومؤسساته.

فالوقت الذى نؤجل فيه الإصلاح الحقيقى ونضيعه فى تدمير الأوطان والإنسان والأديان، وفى التخوين والاستقطاب وفى المؤامرات ومساعدة الأعداء للنيل من الوطن الذى يؤوينا

ويأوى أبنائنا وفى الاتهامات والمهاترات وفى السعى للمنافع الشخصية، سيشكل عبئًا ضخما على مستقبلنا ومستقبل أبنائنا سيدفع ثمنه أبناء الوطن جميعا وسيتحمل مسئوليته بالدرجة الأولى أبناء هذا الجيل الذين لا يدركون حجم ما يقترفون من آثام أمام الله والوطن وأمام ضمائرهم وأمام الأجيال اللاحقة.

وهنا يتعاظم دور النخبة القادرة والمهيأة على نشر الفكر الإصلاحى وإيقاظ الضمائر وإعادة الوعى والانتماء المفقودين، فهذه الأوضاع، هم مشاركون فيها بشكل من الأشكال، لأنهم تخلوا عن القيام بالدور المنوطين به.

فإذا ما تكرر وتقاعست أو تخاذلت النخبة عن القيام بهذا الدور فسيفقد المجتمع فرص الإصلاح والتطوير التى لا غنى عنها فى مسيرته عبر التاريخ ومشروعه الحضارى.

٢ - المشاركة:

إن المشروع الحضارى يتعدى خطوط التخصص فهو يشتمل على كل المجالات، فهو يقظة ثم صحوة للأمة فى ظروف معينة لتحقيق أهداف تنهض بها، تلك الصحوة تنبنى على نهوض مختلف كيانات المجتمع والدولة فى إطار إستراتيجية أمن قومى شاملة تغطى الأمن الخارجى، تتحرك فى نفس الوقت فى قطاعات الأمن الداخلى والاستقرار الوطنى، كما فى قطاعات التعليم والصحة والثقافة والبحث العلمى والعدالة الاجتماعية والسياسة الداخلية والخارجية والمواصلات والطرق .... وباختصار صحوة فى كل مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية كل فى تناسق كامل يدعم كل منها قدرة الآخر، ويكون كل منها مثل المنبع الذى يصب فى النهر الكبير للصحوة الوطنية وذلك لتتدفق فيه المياه وتثرى الحياة، ويستمر قطار الحضارة فى الانطلاق.

من هنا فإن المشروع الحضارى، هو حالة كاملة للوطن يتم فيها إعادة صياغة الحياة على أرض الوطن بالأفكار والعقائد السليمة مرورا بإحياء القيم والمبادئ وترابط المؤسسات المجتمعية وإحياء فيها الروح والحيوية وانعكاس ذلك على الاستخدام الأمثل للموارد البشرية والمادية.

تلك المشاركة التى يجب أن يتحول فيها الشعب والقيادة إلى فريق عمل واحد من أجل تحقيق حلم الوطن العظيم الذى يعيش بداخلنا، ويتطلب عملا جماعيًا ومنظمًا على أعلى درجات الدقة والالتزام، فتحقيق التنمية ضرورة وفرض على الشعب و القيادة معًا وهذا

لن يتحقــق بالصورة الصحيحة ما لم يشــعر كل مواطن بأنه جزء من هــذه الرؤية التنموية وبأن له مصلحة محققة من الإســهام فى تنفيذها وتحقيق أهدافها فالوطن يحتاج إلى جهود وإبداع ومساهمة كل من يعيش فيه.

وعلــى ذلــك فالتنمية لا تقوم إلا من خلال مشــاركة أفراد المجتمع وكافة مؤسســاته مع الدولة لتحقيق التنمية بشموليتها وعدالتها واستدامتها، إذن ليس أمامنا سوى خيار واحد وهو التلاحم من أجل بناء الوطن ولعلنا فى ذلك نتذكر أن الإعجاز الحضارى فى كل مناحى الحياة فى مصر الفرعونية فى المعرفة والعلوم والطب والهندسة والفنون التشكيلية والأدب والكيمياء، والتحنيــط والفلك، والمهــارة العالية للأيدى العاملة وغيرها، هــذا الإعجاز الحضارى العظيم لم يكن إعجاز الفرعون الحاكم وحده، بل كانت نتاج مشترك من عمل الشعب المصرى بكامله فى إطار نهضة على رأســها الحاكم، وهذا ما يدعونا إلى العودة إلى أصولنا، وأن نعمل ككتلة واحدة متكاملة وليس فى جزر منعزلة وأن تكون مصلحة الوطن هى الحاكم للعمل الوطنى.

أما عن المشاركة الحقيقية فى التنمية فهى لا تقوم إلا فى مناخ ديمقراطى، كما أنها وسيلة لإشــراك المواطنين فى العمليات والإجراءات السياســية والاقتصاديــة والاجتماعية التى تؤثر مباشــرة فى حياتهم وتجعلهم يقومون بدورهم فى تنميــة الوطن و بالتالى يتمكن المواطنون من صنع قراراتهم بأنفسهم، ويتحملون مسئوليتهم عن ذلك.

٣ - الديمقراطية:

إن بادئ الأمر هو الإصلاح السياسى ويرتكز عليه الإصلاح الاقتصادى، فإذا كان الأول هــو نقطة الانطلاق للثانى تبقى الديمقراطية هى مفتاح الإصلاح السياســى، فهى وســيلة تنظيم الوصول إلى الحكم والتعبير عن حرية الاختيار وبها يتحقق السلام المجتمعى والعدالة الاجتماعية والانتماء و الشعور بالهوية ودعم الاتجاه نحو التنمية و البناء والأمن القومى.

أما عن المواصفات العامة للديمقراطية ومظاهر التعبير عنها فهى حرية التفكير والتعبير، مع المحافظة على الثوابت المصرية والإســلامية، ووجود دولة القانون وحفظ كرامة المواطن وحقوقه، وحرية تكوين الأحزاب السياسية وتداول السلطة من خلال انتخابات حرة.

وحقيقة الديمقراطية أنها يجب أن تلبى المطالب الأساســية للشــعب مثل، حياة آمنة مســتقرة وســكن لائق، وجودة عالية فى التعليم، وتأمين صحى مناسب والتطلع إلى التقدم واختيار قيادة سياسية تحقق ذلك، وتعمل على استمراره.

كما يتسع مفهوم الديمقراطية فى المشروع الحضارى ليشمل كل من مقومات الأمن القومى، وقدرة الدولة ومكانتها والارتقاء بالبشر، ونجاح التنمية والنهضة والتقدم، وتحقيق الرفاهية والازدهار الثقافى، وتعزيز الانتماء والهوية الوطنية، لذلك يجب على الرئيس أن يتواصل مع الشعب، يتطلع إلى طلباتهم ويحقق رغباتهم، بعد أن يصوغ رؤيته فيحدد الهدف الذى تسعى إليه الدولة، ثم توضع استراتيجية عامه تقودنا نحو الهدف، يتضمنها إشراك الشعب فى القرار، حتى يكونوا فاعلين فيه ، وبذلك تتحول حرية التعبير إلى إرادة يستجاب لها، وتوضع فى حساب صانع القرار، وذلك كله فى إطار دولة القانون، فإقناع الشعب بالرؤية وبالخطة والهدف يجعل منها قوة دفع ودعم ومساندة، وهى أيضاً تعطى الثقة فى النظام والتى تتولد من الوضوح والشفافية، شفافية لا تضر "بالأمن القومى"، ومع ذلك لا يجب أخذ الأمن القومى ذريعة بعدم المصارحة فى المسائل التى لا تضر به، وأن يبرهن النظام الحاكم على إنتمائة للصالح العام للمجتمع بكل مقوماته، وكل ذلك يؤدى إلى وجود الثقة، التى تكسب الدولة هيبتها، وتعطيها القدرة على كسر شوكة من يثيرون الفوضى وعدم الاستقرار ويرتبط بهذا الحرص على تحقيق معدل تنمية لا يميل بثمارها لصالح طبقة دون أخرى.

إن الديمقراطية هى المدخل إلى تحقيق تنمية شاملة ناجحة وهى الضمان الحقيقى لحماية الأمن القومى، وعلى مؤسسة الرئاسة وهى المنوط بها إدراة البلاد والحكم أن تستوعب داخلها المشاعر العامة للمواطنين وتقدر تطلعاتهم.

٤ - الأحزاب:

إن أكبر تحد أمام الأحزاب هو كيف تتفاعل مع مشاكل الناس بشكل مباشر، وتثبت قدرتها على إشباع احتياجاتهم، ووضع الحلول ومعالجة قضايا الوطن، فلقد ظهرت الأحزاب فى القرن التاسع عشر باعتبارها تمثل وتعبر عن مصالح الجماهير، وكيانات تنشط فى صفوف الرأى العام، تخرج منه وتتفاعل معه ،تستلهم فكرها وأهدافها من حركته المجتمعية، وتضيف إليه من الحيوية والطاقة ما يجعله فاعلاً مؤثرا، ومن هنا تأتى أهمية أن يكون الحزب قادر على أن يشكل رؤية سياسية واجتماعية حول القضايا التى يواجهها الوطن واضعا لها الحلول المناسبة، آخذا فى اعتباره التحولات التى تحيط بالوطن فى الداخل والخارج ، ثم قدرته على وضع تلك الرؤية موضع التنفيذ ، وتمارس

الأحـــزاب دورها فى قلـــب الإطار العام للعملية السياســـية القائمة علـــى التعددية، وضمنها الانتخابـــات، لذلك فالأحزاب هى إحدى حلقات الديمقراطية وصورها، فلا ديمقراطية بدون أحزاب سياســـية قادرة على التنافس الذى يخدم بدوره المشـــروع الحضارى إذا كان يصب فى المصلحة العليا للوطن عن طريق الممارســـة السياسية السليمة الواعية والمساعدة فى خلق حلول للمشاكل المجتمعية من منظورها.

كمـــا تواجه الأحزاب تحد آخر يمكن أن يؤدى إلى تراجع دورها لحســـاب أشـــكال أخرى للعمل السياسى ، تتمثل فى منظمات المجتمع المدنى وهذا ما يحتم على هذه الأحزاب ضرورة أن تندمـــج الأحـــزاب المتقاربة فى الفكـــر والأهداف فى كيانات كبـــيرة ، مكونة تكتلات أكثر فاعلية وتأثيرا فى المجتمع. وذلك كله حتى يكون لها دور كبير فى دعم المشـــاركة الشعبية من أجل البناء والتنمية فيكون التنافس بينها تنافس إيجابى يخدم مصلحة الشـــعب ويثرى الحياة السياسية، كما تقوم الأحزاب بالمبادرة بالعمل مع تلك المنظمات ومع المحليات حيث أن الهدف العام واحد تلتقى فيه المصالح نحو رفعة الوطن ويصب كل ذلك فى تيار التقدم المنشود.

٥ - مؤسسات المجتمع المدنى:

يجب أن تقوم بدور حقيقى وجاد فى تفعيل المشـــاركة المجتمعية، وذلك بالمبادرات والمال وتقديم الرؤى والحلول والمتابعة، وأن تضع نصب أعينها المصلحة العليا للوطن والالتزام بقوانين الدولة، وأن تبرهن دائما على وطنيتها، ومثلها أيضا الجمعيات الأهلية ، عليهما دور أساســـى فى عملية التنمية سواء فى الناحيتين الاقتصادية أو الاجتماعية، تلك المؤسسات تشارك الدولة فـــى تحقيق وتفعيل ومراقبة عملية التنمية ، فهى داعم ومســـاند للرؤيـــة التنموية للدولة، وفى ذلك تعميق الشـــعور بالمســـئولية الفردية والجماعية لتنمية الوطن، نتيجة محققة لتلك المشاركة الإيجابية.

٦ - البرلمان:

إن مهمة البرلمان الأساســـية تتلخص فى التشـــريع ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية فى تطبيـــق القوانـــين ، وإقرار السياســـة العامة للدولـــة ، والخطة العامـــة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والموازنة العامة للدولة[1].

(١) المادة «١» من دستور ٢٠١٤م.

وتلك مهمة فى غاية الخطورة تستوجب الدقة فى الاختيار لأعضاء مجلس الشعب، فمصر أحوج ما تكون إلى برلمان قوى ذى قدرات عالية ذات وعى أمنى سياسى اقتصادى اجتماعى وقانونى تعرف قدر التحديات التى يواجهها الوطن ولديها من الحنكة والحكمة ما يؤهلها بالنهوض بحجم الأمانة والمسؤوليات الملقاة على عاتقها، فالبرلمان هو أحد الأعمدة الرئيسة فى بنيان الدولة وهو الممثل للوطنية الشعبية، فكل عضو من أعضائه يحمل على كتفه أمانة اختياره ومسؤلية تقدم الوطن، ومن هنا فإن سباق الترشح للانتخابات البرلمانية يجب أن يكون فيه الأصلح هو الأقدر على أن يؤدى دوره الموضوعى المجرد من الحسابات الذاتية فى دولة بحجم مصر محاطة بالأخطار ولكنها تطلع إلى التقدم ولديها فى الوقت ذاته مقومات ذلك.

كما أن البرلمان وطبقا للمادة (١٤٦) من الدستور المصرى له أن يقر الحكومة التى يشكلها رئيس مجلس الوزراء المكلف من رئيس الجمهورية أو يرفضها...

ولعل فى ذلك أيضا دور بالغ الأهمية مما يؤكد على ضرورة الدقة فى اختيار أعضاء البرلمان، والتى تتطلب من النائب أن يكون أمينًا فى تمثيله للأمة، رغم انتمائه الحزبى التنظيمى وولائه لحزبه أو حتى أيدلوجيته أو مناصريه.

كما يكون مطلوبا من النائب الإلمام بأمور السياسة والثقافة والاقتصاد والظروف الاجتماعية الداخلية، وكذلك قادر على استخدام أدوات عصر ثورة المعلومات والمعرفة بالتحولات العالمية وموازين القوى الدولية والتغير فى النظريات والأفكار السياسية والاقتصادية والمفاهيم المتغيرة للتنمية الاقتصادية والأمن القومى وغيرها.

ولما كان الكثيرون قد تنقصهم الإحاطة بكل هذه الأمور لذلك، فأقترح تشكيل لجنة للتدريب (من القانونيين والاقتصاديين والسياسيين والخبراء) تقوم بعمل دورة مكثفة لهؤلاء الأعضاء لرفع كفاءتهم فى العمل البرلمانى بما يتفق مع طبيعته طبقا للظروف الداخلية والمتغيرات الخارجية تكون فى غير أوقات انعقاد المجلس، وتكون إجبارية، وتستلزم تقديم كل عضو (سيرة ذاتية).

– يجب أن تتغير طبيعة دور النائب (كنائب للخدمات) إلى العمل من منظور رؤية عامة للدولة شاملة لكل جوانب الإصلاح (سياسى واقتصادى واجتماعى) إصلاح ينعكس فى الحال والاستقبال على المواطن المصرى والمجتمع بكل فئاته، فيزاح عن النائب عبءٌ

يجـره إلى الإفراط فى المحلية، ليتحول البرلمان بكامله إلى كتلة واحدة آحادها متنوعة ولكـن غايتها وأهدافها متحدة متسـقة، مما يعمل على توفـير بيئة من العمل والرقابة والتشريع تيسر الدفع نحو التقدم وتحفظ آمال وتطلعات الشعب المصرى.

- ولضرورة إشراك الشباب فى الحياة السياسية يجب أن يكون لكل عضو اثنان مساعدان من الشباب، فهذا بمثابة تأهيل وتدريب لهم على العمل السياسى.
- كمـا يجـب أن يضم البرلمان تحت قبته مؤسسـة بحثية تقدم له المعلومات والأسـاليب المعرفية، وتدعمه فى اتخاذ القرار التشريعى المناسب وأداء أعماله.
- وفى هذا السياق أيضا ضرورة تشكيل لجنة من شيوخ القانون والخبراء فى كل المجالات، تسـاعد مجلس الشـعب فى تنقية القوانين والتشـريعات المصرية، وإزالة البالية منها والتـى لم تعـد تصلح للتطبيق اليوم، والتى تتعارض مع نصوص الدسـتور، فمصر بها ما يقارب من ٦٣ ألف تشريع وهذا كم هائل جدا يعمل على تعميق البيروقراطية ويوفر بيئة من التعقيد والتعارض.
- ولمـا كان انتخاب أعضاء البرلمان أحد صور الديمقراطية والممارسـة للحقوق السياسـية، فيجب أن يحرص الشعب المصرى على ممارسة تلك الحقوق، فهو حرص على الحاضر والمستقبل وأن ينتخب من يكون أمينا قادرا على عبء القيام بتلك المهام.
- وبذلك يكون الدستور مع البرلمان مع القيادة السياسية يعملون على تهيئة بيئة تشريعية مناسبة لسريان وتدفق تيار التقدم.
- وأخيرا وليس آخرا، يتصارع الراغبون فى عضوية البرلمان ويتكالبون عليه ويختلفون على الفردى والقائمة وينشـقون مابين حزبى ومستقل، ناظرين إلى بعض المصالح الدنيوية، ولكنى مشفق عليهم من حمل أمانه الأمة، حقا إن الإنسان لظلوم جهول.

٧ - الإعلام:

- **الإعلام هو قوة الدولة الناعمة**

ويتمثل دوره فى إصلاح منظومة القيم والأخلاق، واسـتعادة الانتماء المفقود لدى بعض الفئات، فالإعلام يلعب دورًا خطيرًا فى تشكيل فكر ووجدان الشعوب، فيجب على الإعلام أن يقـوم بدوره فى توجيه العقل والضمير الجمعى إلى الالتفاف حول المشـروع الحضارى،

والتأكيد على هوية الشعب المصرى، ويقوم بمصالحة الشعب مع ضميره وهويته ومشاعره وأخلاقه، فللإعلام دور كبير فى تغيير السلوكيات والعادات السيئة التى تعوق النهوض والتطوير والتحضر، وإعادة صياغة العقول المصرية بما يخدم التنمية، وإعادة استرجاع ذاكرة التراث المصرية المشرفة، وذلك للتحفيز ورفع الروح المعنوية لدى الشعب المصرى، والوقوف على مناطق الضعف والمشاكل التى تعانيها الدولة فى كافة المجالات، فى محاولة لإيجاد الحلول لمعالجتها وتقويتها، كما يقوم الإعلام بالتنبؤ والتنبيه على المخاطر المحتملة والمتوقعة، فالإعلام شريك أساسى فى قيادة الدولة، كما يقوم بنقل صورة حقيقية لما يحدث فى العالم، ونقل صورة تليق بمصر إلى العالم، وفى هذا السياق أرى ضرورة وجود قناة مصرية عملاقة ومتطورة يديرها ويعمل بها كادر من الكفاءات التى تستطيع مخاطبة العالم بلغاته والتعامل معه بصورة محترفة وبإمكانيات عالية، حتى لا نترك الريادة فى هذا المجال لقنوات أخرى تصول وتجول فى الحق والباطل.

وكذلك أيضا إعادة التأكيد على دور الهيئة العام للاستعلامات وضرورة وجود رئيس دائم لها، مما يعمل على استقرار الإدارة والقرارات داخل تلك المؤسسة.

والإعلام بأنواعه الدينى وغير الدينى، المكتوب منه والمرئى والمسموع له دور مهم وخطير فى التلاحم الوطنى وعرض الحقائق بكل وضوح وشفافية وعدم مغالطة الرأى العام، ودور أكبر فى التأكيد على وسطية الإسلام واعتدال المسلمين، بما يستوجب إعادة النظر فى الخطاب الدينى والقائمين عليه، وسوف نقوم فى الجزء الثانى من الكتاب بمناقشة إصلاح منظومة الإعلام.

لابد أن يؤدى الإعلام دوره فى نشر أفكار التقدم على كافة المستويات، وبالوسائل المختلفة من تلفزيون وراديو إلى صحف وكتب وانترنت ومساجد وكنائس وغيره حتى تجمع الدولة فى رؤية نهضوية مشتركة، وشىء من التنسيق والترتيب، وتكامل تلقائى للأعمال والأدوار فى استمرارية للتدفق والتنشيط الفكرى.

وبذلك تكون المساهمة حقيقية فى صناعة الشخصية المصرية وتكوين لديها الأفق العلمى والأخلاقى من خلال حيازة الأفكار السليمة والتحلى بقيم الانضباط والالتزام والإبداع، والأفق الإدارى الواقعى، والذى من خلاله يمكن للمصرى أن يحسن استخدام موارده لتنفيذ خططه وأهدافه وبرامجه النهضوية بأقصى درجات الفاعلية والإنتاجية، وكذلك

الأفق السياسى والاستراتيجى والذى يمكن المصرى الفعال من التخطيط بعيد المدى وقراءة واقعه قراءة صحيحة تمكنه من استغلال الفرص المستقبلية، وحماية مشروعه من التهديدات الإستراتيجية، فى عالم يتسابق نحو التقدم والأخذ بناصية الريادة.

٨ - التوافقية:

هى أساس ضمان التوازن داخل المجتمع والتى تتحقق عن طريق توافق واسع النطاق، وملزم على معايير السلوك والقيم والقواعد والقوانين والأعراف التى تحفظ كيان الدولة وترتقى بها كما تحافظ على النظام العام، ومن يخرج على هذه المعايير يعتبر خارجا على المجتمع والدولة، وديمقراطية الاختيار هى أحد صور التوافقية وروافدها، والتى تتوافق حول المبادئ الأساسية لإدارة الدولة والمجتمع.

والتوافقية تعمل على ثبات واستقرار أى نظام، بشكل يلبى أمانى الشعب وليس المصالح الذاتية لمن يكون فى موقع السلطة، وبذلك هى على النقيض من نظرية الصراع والصدام كطريقة للتغيير.

كما أن التوافقية تكون أداة لصنع التقدم عن طريق التحفيز وحشد قوى المجتمع على اختلافها وتنوعها وغزارة فكرها تجاه رؤية موضوعه للنهوض بالبلاد وسلوك سبل الحضارة.

ولعل التوافق حول وضع الدستور أحد صور التوافقية وأبرزها

أما الصورة الثانية: من التوافقية هى المصالحة الوطنية، وهى ضرورة لتجاوز المرحلة الحالية، ولكنها تقتضى الآتى:

أولاً: تجفيف منابع الإرهاب والقضاء عليه

ثانيًا: إحكام السيطرة الأمنية فى الشارع المصرى

ثالثًا: تجفيف منابع الفساد والقضاء عليه

رابعًا: تحقيق العدالة الانتقالية

تلك العدالة التى تولد الإحساس بالأمان داخل المجتمع المصرى، وتوجه تحذيرًا شديد اللهجة لمن يخطئ ويفكر فى ارتكاب مثل هذه الجرائم والتجاوزات فى المستقبل، فتلك العدالة هى بمثابة سياج واقٍ للدولة.

١- أعتقد أن الدولة المصرية لديها من الآليات التى تمكنها من تحقيق العدالة الانتقالية. أما المصالحة الوطنية، والتى سوف تأتى بعد تحقيق العدالة الانتقالية، هى تقتضى من

قوى المجتمع تجنب أسباب الانشقاق، والعمل بكل الوسائل من أجل الاندماج اجتماعيًا وسياسيًا، وليس لأى طرف إعلان القطيعة مهما كان وزنه وموقفه، أما المحاسبة فمنوط بها المؤسسة القضائية.

٢ – وتستوجب تلك المصالحة إعادة النظر فى أسلوب الخطاب الإعلامى (دينى وغير دينى).

٣ – إعادة صياغة العلاقة بين الشرطة والشعب لرأب الصدع الذى حدث فى العلاقة بينهما.

٤ – وضع قوانين ثابتة ومستقرة لا تضر بالمصلحة الوطنية وآليات شفافة للتعامل مع المستثمرين ورجال المال والأعمال، وتبنى نظم اقتصادية واستثمارية موحدة، وبيئة تشريعية سلسة.

٥ – تبنى خطاب سياسى توافقى يعمل على لم الشمل بين جموع الشعب المصرى ومنهم أتباع الأنظمة السابقة، ممن لم يفسدون الحياة السياسية أو يعكروا صفو الأمن، أو يتورطوا فى ارتكاب أى جرائم أو خروج عن القانون، ولكنهم مجرد موالين للأنظمة، وذلك لتعميق الشراكة الوطنية، ولم شمل الدولة تحت هذا التوافق مسلمين وأقباط – فقراء وأغنياء إسلاميين وليبراليين ويساريين وقومين، ومختلف الأحزاب والقوى السياسية والفئات الاجتماعية، أعتقد أن كل ذلك خطوات رئيسة نحو التقدم وإنجاز المشروع الحضارى.

٩- روح الجماعة:

هى إرادة المجتمع، وتحركه لتنفيذ المشروع الحضارى بمراحله المختلفة، لذلك فهى من أهم شروط نجاح المشروع الحضارى، ويساعد على إيجاد روح الجماعة ووجود قيادة سياسية لديها القبول والقدرة على استلهام الجماهير، ونخبة واعية، ورؤية وطنية لمشروع حضارى يقنع الجماهير ويلبى تطلعاتهم فتتبناه الجماهير، فتأذن بإطلاق شرارة البدء الفعلى للمشروع الحضارى والنشأة التنفيذية له، تلك النشأة بمثابة الروح فى الجسد، والتحرك من السكون، التحرك الواسع الشامل، مستلهما ما يعرف بروح الجماعة، وهى روح المشروع، والتى تعنى تجميعًا لمختلف التيارات السياسية والاجتماعية، وتنوع الاجتهادات السياسية والفكرية، تلك الروح لا يصنعها أحد من خارج المصريين ولا من لا ينتموا إلى الوطن فى الداخل، فهى استلهام من الخصائص التاريخية للشخصية القومية للمصريين، والتى قد

عبرنا عنها فى الجزء المتعلق «مصر بين الموقع والهوية» من هذا الكتاب ، تلك الشخصية القومية التى تكوّن مع المصالح العليا للوطن ، ضابطان يحكمان العمل الجماعى.

وروح الجماعة تقتضى إعلاء الثقة فى نفوس مواطنى مصر بأنهم قادرون، قادرون على تحقيق أمنهم واستقرار وطنهم، قادرون على تحقيق أهدافهم فى الحرب والسلم، قادرون على تحقيق الآمال والطموحات، قادرون على قهر التحديات والتغلب على المصاعب، قادرون على إعلاء راية الوطن خفاقة فى عنان السماء، قادرون على الأخذ بزمام الريادة والإمساك بدفة التقدم، قادرون بالعلم والمعرفة قادرون بالإرادة والعزيمة، قادرون بترابطهم وتوحدهم، قادرون بالمثابرة والاستمرار فى العمل الجاد الشاق، إنها الترجمة الحقيقية لروح أكتوبر ١٩٧٣م.

إن روح الجماعة التى أمرنا الله بها فى قول تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣].

تلك الروح التى كانت الأساس الذى كون به رسول الله ﷺ وهو أعظم قائد فى البشرية أمته، فبدأ أولاً فى الإصلاح من داخل النفوس، وبإرادة من المجتمع ذاته، فتبنى شعب المدينة لرسالة الدعوة الإسلامية، ودخلوا فى دين الله طواعية، بذلك قامت دولة الإسلام فى المدينة المنورة، التى كانت بعد ذلك منطلقًا وأساسا للحضارة الإسلامية.

هكذا تبنى الأوطان وتنشأ الحضارة – كما علمنا القائد والقدوة – بروح الجماعة، فكانت دعواه عامة وشاملة، وبعد أن قامت دولة الإسلام، لن تشهد تحيز رسول الله ﷺ لفئة أو لفصيل دون آخر فى أمته، على الرغم من أن الفارق الكبير بين الأمة وقتها والأمة اليوم، ولكن الظروف أيضا تغيرت والأحوال تبدلت، كما لم يبلغ لعلمنا أن انعقدت البيعة فى عهد رسول الله ﷺ، ولا فى عهد الصحابة، ولا غيره من العهود، لشخص عادى لم يكن أميرًا للمؤمنين، فالبيعة والسمع والطاعة إنما تعقد لأمير المؤمنين، وهو ولى أمر المسلمين الذين يختارونه حاكما، فما هى صفة (المرشد) إذن من حكم الدولة حتى تنعقد له البيعة، وإذا كان مفهوم البيعة لم يقتصر على دولة واحدة مثل مصر (من وجهة نظر من يعتقدونها) حيث عالمية الشريعة، فما هى أيضا صفة المرشد من العالمية، فى أى موضع من العالم يحكم، أى أمة عالمية تجتمع مكونة مجموعة دول فى شكل سياسى يحكمها حتى تنعقد له البيعة ، وإذا افترضنا أن كل ذلك تمهيدًا لإنتشار الدعوة الإسلامية حتى تسود وتحكم

العالم من خلال هذا التنظيم، تكون بذلك قد أخطأت الوسيلة، إن سنة الله فى التغيير تأبى ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: آية ١٧].

ففى ذلك تجاهل للسنن الشرعية، ولقد انعكس هذا التجاهل أيضا فى صورة فشل ذريع لحكم أحد أعضاء التنظيم فى مصر، مما أدى إلى خروج الناس دفعة واحدة فهدد اعتبارات الأمـن القومى، وتأزم الموقف، فتحتم معها تدخل الجيش لتلبية وترجمة نداءات ورغبات جموع المصريين لإنهاء الاحتقان المحتدم الذى يهدد بضياع الدولة برمتها.

فإن تصور أن مجرد إزاحة الأنظمة أو استغلال الأوضاع الثورية فى البلاد لتسلم أدوات الحكم هو الوسـيلة السـحرية التى من امتلكها فإنه يستطيع تحويل الأمة إلى نعمة العيش فى ظلال الشريعة، هى نظرة واهمة لا تستقيم مع السنن الشرعية.

فإن تصور إمكانية وجود حكم إسـلامى كامل يتغلغل فيه تنظيم داخل الدولة فى ظل مجتمع يموج بالفساد والانحراف هو تصور يتصادم مع تلك السنن الربانية، فإن الله لا يولى على الناس أمثال: أبى بكر وعمر إذا لم يكونوا بمستوى رعية أبى بكر وعمر، فكان نتيجة للفهم الخاطئ للدين انتشـار الفوضى والاقتتال وإسالة الدماء وأعمال الإرهاب والغالبية من القاتل والمقتول من المسلمين، وكل ذلك جاء على حساب الوطن ومن قبله المسلمين.

إن تغيير النفوس المطلوب لكى تعمل هذه السنن العظيمة فى أمة الإسلام يتطلب إصلاحًا شاملاً، وحيازة مقومات المجتمع الإسلامى الناهض، التى فرط فيها المسلمون، فوصلوا إلى ما هم فيه من حضيض الضعف والتخلف، والعجز عن حمل رسالة الإسلام العالمية.

فالمشكلة إذن ليست فى إقامة حكم إسلامى، بل فى صياغة مجتمع نهضوى، يستطيع أن يتحمل تبعات هذا الحكم الإسلامى.

فـإن نتيجـة إقامة الحكم الإسـلامى قبل صناعـة مجتمع قوى يسـتطيع أن يتحمل تبعـات ذلك، يؤدى إلى الفشـل الذريع كما رأينـا، وإن كان أصلا أهل التنظيم لم يحكموا حكمًا إسـلاميًا، بل أداروا الدولة بعقلية رجال حركة فى صورة إسـلامية شـكلية، خالية من المضمون، فـكان الضرر مضاعف والكارثة أكبر، فاشـتدت المخاطر التى تحدق بالوطن واحتدت وكانت فرصة سانحة لمن يدبرون المؤامرات ليجدوا بيئة مناسبة لتنفيذ مؤامراتهم.

تلـك المؤامرات التى لم تنته بعد، فرحـل التنظيم عن الحكم، وبقيت المؤامرات، منها ما تغتال الأبرياء، ومنها ما تهدد الدولة وحياة كل المصريين، هذا بجانب حالة الاستقطاب

التـــى لم تقتصـــر على الوضـــع الداخلى فى مصر فقـــط، ولكنها امتدت إلى الـــدول العربية والإسلامية وطالت الدول الإفريقية والقوى الدولية، لقد أصبحت الأمور بالغة التعقيد على الصعيد الداخلى والخارجى أى تهديد هذا، وأى مخاطر تلك، إنها فجيعة كبرى، حقيقة لا أعرف أنعى من: الأبرياء، أم الوطن أم الإســـلام، لقد انفصلت عروة من عرى الإســـلام، وتداعى الأكلة إلى قصعة الوطن والمسلمين، إننا نهدم وطننا وديننا بأنفسنا، ألا يستحق كل ذلك من وقفة للتفكير والتأمل فيما آلت إليه الأوضاع والأمور، ألا يستحق كل ذلك مراجعة النفس والضمير؟ ألا يســـتحق كل ذلك من العودة إلى الدين مرة أخرى نفهم ونتدبر معانيه ومقاصـــده؟ حتى نتمكن من التصالح مع أنفســـنا وديننا ووطننا، فنســـتقيم على منهج الله ونعـــرف قدر الوطـــن، ونرجع إلى قدوتنا وحبيبنا محمد ﷺ ففى حديث ورقة بن نوفل أنه قال لرسول الله ﷺ ولتكذبن: فلم يقل له النبى ﷺ شيئًا، ثم قال «لتؤذين» فلم يقل شيئًا، ثـــم قال: ولتخرجن فقال: أو مخرجى هم" هذا الســـؤال يحمل فى طياتة دليلاً على حب الوطن وشـــدة مفارقته على النفس ، فلم يهتم الرســـول ﷺ بالتكذيب ولا بالإيذاء، والموضع الـــدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف اســـتفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه أو التألم منه، فهل لنا فى رسول الله أسوة.

إذن الأولى مـــن الدخـــول فـــى صراعات لا طائل مـــن ورائها اللهم إلا فـــى تبديد طاقة الإصلاح فى غير فائدة تذكر، بل والتسبب فى حالة الاستقطاب داخل المجتمع لم يجنى من ورائها إلا (الخراب) وتعميق الكراهية، الأولى من ذلك هو التوجه إلى المجتمع يربتون على كتفه وينصهرون فيه ويتعاونون معه ليعودوا إلى الهوية المصرية ويحافظون عليها ليساهموا فى جهود الإصـــلاح ، حتى يكون لهم مكانٌ فى المســـتقبل، فالوطن لا يقف علـــى أحد والزمن لا ينتظر، فنحـــن فـــى حاجة إلى الوطن وإلى الإســـلام وليس العكـــس، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [ســـورة الرعد: آية ١٧]. وأذكر بتحذير رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

أما فيما يتعلق بمسألة هذا مسيحى وذاك مسلم، فإن أهل الكتاب جزء من المجتمع المصرى، فقد شرع الله تبارك وتعالى لنا رؤية واضحة للتعامل معهم ، تقوم على الموازنة بين جانبيين:

١ – إعطائهم حقوقهم الكاملة، من حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية وحرية الكسب والعمل، ومعاملتهم بالعدل واللين والقسط.

٢ – المسيحى له ما يعتنق والمسلم له ما يعتنق، لكن الغلو فى أحد الطرفين على حساب الآخر ليس من دين الله تعالى فى شئ فأهل الكتاب مواطنون فى الدولة الإسلامية لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، إلا ما استثناه الشارع الحكيم.

وأن يجتمع المسلم والمسيحى فى وطن واحد على القيم ومحاربة الرزيلة، والسعى لتقدم البلاد وتثبيت دعائم مكارم الأخلاق فلا غبار فى ذلك، فلقد أقرتها كل الرسائل السماوية.

«أما عقيدة الولاء والبراء، فقد كان لها فى نصوص الكتاب والسنة الحظ الوافر، الذى لا يكاد يغلبه وفورًا ووضوحًا إلا نصوص التوحيد»[1].

عذرًا إن كنت أطلت عليكم فى هذا السرد، ولكنها الضرورة فى حياتنا الواقعية التى نعيشها اليوم هى التى فرضت ذلك فى حديثنا عن روح الجماعة، وما تحتويه من مغالطات، ويقصر مفهومها البعض، فإن كنا ندعم روح الجماعة وندعو لها، فإنما نقصدها على شمولها واتساعها، والله اسأل أن يحفظ مصر وشعبها.

١٠ - الفاعلية:

إن مصر تحتاج جهود وإبداع ومساهمة كل من يعيش فيها، فمن له نصيب فى حاضر مصر سيكون له نصيب فى مستقبلها، لكن عليه أن يصون الحاضر ويعمل لمستقبله، الذى هو مستقبل مصر أيضا.

إن لم يفعل ذلك أعتقد أنه سيكون بذلك يقف ضد التيار العام، ولم يلبث إلا أنه سينضم إليه ولكن بعد أن يكون فاته الكثير، فمصر ستجد دائما بعون الله من يصنع مستقبلها.

إن المجتمع هو مجموعة من الأفراد، والمواطن هو صانع التقدم، والتقدم لن يأتى منحة من السماء أو هبة من أحد، فذلك يتناقض مع قوانين السماء، بل يأتى بالعمل وبذل المجهود الشاق، والسعى بكل ما أوتينا من قوة، فالتأخر الذى عانيناه لعشرات من الأحقاب، يحتاج لمجهود مضاعف، يحتاج لنبذ العنف والفرقة والتشرذم والكسل والإهمال واللامبالاه، يحتاج أن نعطى الوقت قيمته والعمل قدره، ويحتاج أن نتسابق مع الزمن من

(١) هشام عبد العزيز – مرجع سابق.

أجل البناء والتشييد والتصنيع والتجارة فى بيئة تسودها المنافسة الإيجابية، والأمل فى التقدم، ونتبوأ مكان لائق بنا تحت شمس الحياة، فالوقت يمضى وعقارب الساعة تدور والعالم يعدو فى سباق مستمر ولن ينتظر المتكاسلين والمتخاذلين وعديمى الإرادة والمتناحرين.

يجب أن يعى كل من يعيش على أرض الوطن أن ضريبة التقدم هى الخروج من التأقلم مع الأنماط السابقة بما أخذ عليها ومحاولة التعايش معها إلى قبول التغيير ودفع ثمن الإصلاح فى الوقت الحالى بالعمل و الكفاح كل حسب موقعه، حتى نجنى ثمار التغيير فى المستقبل، فالجسم الذى يعانى أمراض مزمنة منذ عشرات السنين ، وحاول التعايش معها، عليه إذا ما حانت لحظة التخلص منها أن يتحمل مرارة الدواء، والصبر على العلاج، فالعلاج له فاتورة يجب دفعها حتى يتم الشفاء.

إن نجاح الأمم بنجاح شبابها، وتحقيق النجاح مسئولية الجميع لا الحكومات فقط، فالحكومة بهيئاتها وقطاعاتها عليها أدوار تؤديها وتفى بالتزاماتها وتقوم بواجباتها كاملة، وللقطاع الخاص دور متميز فى إنجاح هذه المهمة، فهما معًا يوفران لأبناء مصر دورًا محوريًا فى عملية التقدم.

لقد بينا كيف تحولت اليابان بعد الكارثة إلى مصاف الدول المتقدمة، فلقد أخذ أبناء تلك الدولة على عاتقهم العمل والإبداع والتطوير، والمرأة اليابانية أدت دورها فى تربية أطفال صالحين ملتزمين قادرين على مواجهة العقبات، وغير مكلفين الدولة بأعباء إضافية، فالطفل اليابانى قادر على الصناعة والاختراع والإبداع مما يوفر له دخل خاص.

إن من طبائع الأمم التعايش على الاعتماد المتبادل، ومن قبلها طبائع الأفراد، ولكن يلزم قبل ذلك أيضًا أن يكون لدينا القدرة على الاعتماد على أنفسنا وأن يكون لدينا ما يميزنا ونحسن القيام به قبل الدخول فى الاعتماد المتبادل.

إن مشقة بناء الوطن صعبة، ومشقة التقدم وصنع الحضارة أصعب ولكن على قدر المهمة تكون المشقة، فإذا ما تحققت بوادر النجاح انقلبت المشقة إلى متعة فى البناء وإحراز التقدم والتطلع نحو المزيد.

١١ - التحفيز:

إن الدولة قد تبدأ فى مشاريع قومية وتضع استراتيجيات لتنفيذها وقد تضع استراتيجيات للسياسة الداخلية والسياسة الخارجية، وخطط وأنظمة ومؤسسات معاونة

سياسية واقتصادية، وعسكرية، وإعلامية، وغيرها، ولكن الشرط لبقاء واستمرارية هذه الاستراتيجيات مفعلة أن تكون الدولة موصولة بالداخل تستمد أساس البقاء من مشاعر رأى عام متأججة، احتشد وراء هذه الاستراتيجيات، يشد من عزمها ويتقبل إيثارها على نفسه فى مطالبه الوقتية.

هذا هو العامل والضامن لبقاء النجاح واستمراريته، وبلوغه نقطة الوصول المرحلية، وليس النهاية، فالرؤية ليس لها نهاية، والتطور لن يتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أما عن هذا النجاح فهو يولد أمل، والأمل يعطى الثقة فيما سيأتى غدًا والثقة تزيد من قوة الحشد المجتمعى بشحن المشاركة والانتماء، فيكون النجاح أكبر، وهكذا عملية مستمرة، مزيد من النجاح مزيد من الأمل، مزيد من الثقة، مزيد من شحنة الانتماء والمشاركة وكل ذلك مصدره التحفيز الذى هو بمثابة الشمس التى تعطى الطاقة، أما عن روافد التحفيز هى تعزيز الهوية والانتماء، فالتاريخ يعطينا الثقة، والحاجة إلى التقدم تعطينا رغبة فى التغلب على العقبات ومواجهة التحديات والنتيجة المحتمة لكل ذلك أيضا رضا الناس بما تفعله الدولة واقتناعهم به، فيكونون مشاركين فى القرار، فاعلين فيه، وهذا ما يتساوى مع مفهوم الديمقراطية.

إن التحفيز هو القوة التى تحرك الفعل وتصنع المبادرة وتوجد الولاء وتدفع للإبداع وإنه سر تحقيق الأهداف.

إن التحفيز الذى يستمد روافده من هوية مصر العربية والإسلامية، هو الذى يصنع الإنسان المصرى القادر على صنع التقدم.

ولقد تعرض الإنسان فى مصر إلى تخريب كبير، تخريب فى دينه، تخريب فى وطنيته، ولكى يعود الإنسان المصرى إلى مصريته وإسلامه لابد من إضاءة عقله وإحياء ضميره وإيقاظ وجدانه، وشحذ إرادته وتزكية نفسه وتهذيب سلوكه، فيتغير الإنسان من داخل نفسه بتغير أهدافه ومثله، ومعتقداته، وقيمه، وتصوراته ومفاهيمه، إنه تغيير ينفذ إلى الروح والجوهر، لا يقف عند الغلاف والمظهر.

أقترح فى هذا السياق إنشاء مؤسسة خاصة للتحفيز واحتضان الإبداع. (مؤسسة التحفيز والإبداع).

• **موارد المشروع الحضارى (المدخلات):**

تنقسم إلى ثروة بشرية و ثروات مادية وطبيعية:

المورد الأول: (الثروة البشرية):

إذا كان الذى يصنع التقدم ويقيم الحضارة هو الإنسان، إذن مصر الآن تمتلك ما يقارب أو يزيد على ٨٤ مليون صانع حضارة، هذا هو مقدار الثروة البشرية لمصر، وأهم نقاط القوة التى تمتلكها، على الرغم مما تنطوى عليه من تحديات فى الحال والاستقبال، وقد يعترض البعض على ذلك ويعتبرها نقطة ضعف، وكارثة بشرية على صناعة التنمية ولكن، ما هو المعيار الفاصل، بين هذا وذاك..؟

إنها مرامى وأهداف السياسات التى تتبعها الحكومات المسئولة عن شعوبها.. هل تتجه نحو الارتقاء بحياة هذه الشعوب، ومستوياتها المعيشية، وحمايتها، ورفاهيتها، تعليميًا وصحيًا، وثقافيًا، وسلامتها واستقرارها..؟

هذا هو الفيصل وهذا أصلاً هو السبب الذى تنشأ من أجله السلطة، وينعقد لأجله الحكم، فإذا أخطأت هذا الهدف تكون قد جانبها الصواب وإنعزلت عن الأصل الذى قامت من أجله.

ومع ذلك نعترف بواقع الشعب المصرى اليوم، والحالة التى وصل إليها نتيجة للسياسات الخاطئة التى تعاقبت عليه، وهذا الاعتراف يتطلب إعادة توجيه البوصلة السياسية إلى اتجاهها الصحيح، وهذا ما نبتغيه فى هذا المشروع، مع إبراز الدور الذى يتعين على الشعب المصرى نفسه أن يقوم به، فالشعب والسلطة، هما جناحان لصقر جسده الوطن.

إن الإنسان ثروة مناطها العقل، هكذا ميزه الله جل وعلا لأن يتملك القدرة على التفكير والتدبر والاكتشاف والابتكار، وهو أيضًا ثروة بحسابات التنمية، فلو افترضنا أن أى طفل يولد هو «فم يأكل» وبذلك يوضع فى خانة المستهلكين ٢١ عامًا، هو أيضا «يدوٌ» تعمل وعقلٌ يفكر ويبدع لمدة ٣٩ عامًا (بفرض أن متوسط عمر الإنسان ٦٠ سنة)، وهى قابلة للزيادة مع زيادة متوسط العمر بزيادة تقدم المجتمع.

ولقد تطلعنا الإحصاءات على أن ما يقارب من ٦٠ بالمائة من الثروة البشرية لمصر هم من الشباب، فعلى الرغم من أن النتائج التى تترتب على شبابية الهيكل السكانى،

أن معدلات المواليد والنمو السكانى تظل عند مستوى مرتفع لفترة طويلة، «فإن هذه الشبابية تزيد تلك الثروة ثراء، فإن الشباب يميلون إلى التغيير والتجديد والبحث عن حلول مبتكرة للمشكلات وارتياد المخاطر، وهذا يستدعى من الدولة استيعاب الشباب وتوفير الظروف الملائمة لإطلاق طاقتهم واستثمار جهودهم فى مجالات منتجة تعتمد على تكثيف استخدام عنصر العمل .....

أما النظر إلى المواطن على إنه عبء وعالة، فهذا انعكاس للاستبداد والفساد، فالاستبداد يأكل حرية الإنسان وكرامته، أما الفساد يتآكل فيه كيان الإنسان وفاعليته .

إن الثروة البشرية هى المحرك الرئيس لقاطرة التقدم (الموتور)، فما مقومات هذا المحرك.....؟ إذا كان غير مؤهل، يجب أن يتم إعادة تأهيله طبقاً لمتغيرات العصر ومتطلبات التقدم، عن طريق تعليمه وتثقيفه وتدريبه، ثم قيادة تبث فيه روح المبادرة وتحفزه على الإقدام نحو كل ما هو إيجابى وتدعم توجهه نحو الاختيار الصحيح، فإذا ما نجحنا فى تأهيل المحرك، سهل علينا الاستفادة المثلى من باقى الموارد بعد تنظيمها بإحكام.

ولا يخفى علينا أن مقومات العصر الذى نعيشه تحكمه المنافسة الذكية الأمر الذى يستوجب علينا استخدام أكثر ما فى العقول، وتحقيق أكثر فائدة من التنوع فى الرؤى والأفكار، ومصر ذات ثراء فريد فى ذلك، فلدينا قاعدة عريضة من العلماء والمفكرين والمثقفين، والمبدعين، ومخزون فكرى استراتيجى قادر على حل المشكلات، ولدنيا العديد من مراكز الأبحاث والإبداع والتنوير ومؤسسات العلوم والتقارير والدراسات والأبحاث والمؤتمرات التى هى فى شبه حالة انعقاد متواصل، فإذا ما أحسنا توظيف تلك العقول والأفكار والرؤى وحققنا منها أقصى استفادة ممكنة أهلنا ذلك إلى النهوض بالبلاد و صناعة التقدم والحضارة، بل جعل من مصر مركز إشعاع فكرى وإنسانى عالمى.

المورد الثانى (الثروة الطبيعية والمادية):

تعد الموارد الطبيعية، وهى تلك الموارد التى وهبها الله عز وجل للإنسان من دون تدخل منه، أحد مصادر قوة الدولة المصرية، حيث تمتلك مصر الكثير من تلك الموارد والثروات التى تعد مقومًا من مقومات القوة، ومحددًا من محددات الدور القومى لمصر، ومعززًا لمكانتها الخارجية على الصعيدين الإقليمى والدولى. فى هذا الإطار يمكن التركيز على أبرز الموارد

الطبيعيــة التى تمتلكها مصر والتى تتمثل فى أربعة عناوين رئيســة، هى الموقع الجغرافى المتميز، والموارد المائية الممثلة فى نهر النيل والمياه الجوفية، ومصادر الطاقة المتجددة الممثلة فى الشمس والرياح، وأخيرًا الثروات المعدنية[1].

(أ) الموقع الجغرافى:

يعد الموقع الجغرافى الاستراتيجى لمصر رأس مال طبيعى وسياسى ومورد أصيل من موارد الثروة القومية باعتباره أحد مقومات الدور التاريخى والحضارى للبلاد، سواء على مستوى اليابس أو على مســتوى المياه.فعلى مســتوى اليابس؛ يوفر الموقــع الجغرافى لمصر بعدين أساســيين، هما البعد الإفريقى، والبعد الآسيوى، فعلى صعيد البعد الإفريقى وبفضل نهر النيل اكتســبت مصر طبيعة المدخل وأصبحت البوابة الإستراتيجية لقلب القارة الأفريقية، أما على صعيد البعد الآســيوى، فيوجد طريقان يفتحان غرب آســيا والقارة كلها أمام مصر همــا: طريق الهلال الخصيب فى الشــمال، وطريق غرب الجزيــرة العربية فى الجنوب[2] أما على مســتوى المياه، فمصر تطل على أهم وأطول بحرين فى العالم وهما: البحر الأحمر الذى يعتبر الرابط الأساســى لمصر ولجميع دول الشــرق الأوســط ويقود علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع الدول الأخرى، والبحر المتوسط الذى يعتبر الشريان الرئيس الذى يربط الشرق بالغرب ويقود معظم علاقتها مع الدول الغربية ودول حوض البحر المتوسط.

وتعــد مصر بموقعهــا الجغرافى أحد أهم ممرات التجارة العالمية بين الشــرق والغرب، فــإلى جانب النقل البرى الذى يلعب دورًا كبيرًا فى نقل التجارة الخارجية من وإلى مصر، يوجــد عدد من القنوات والطرق والممرات الملاحية والنهرية ســواء الطبيعية أو الصناعية، فيوجد نهر النيل الذى يشــق أرضها من الجنوب إلى الشــمال وهو ينبع من أواســط شــرق أفريقيا وينســاب نحو الشمال ثم يتفرع إلى فرعين يصبان فى البحر المتوسط هما فرع دمياط فى الشــرق وفرع رشــيد فى الغرب، واللذين يحصران فيما بينهما دلتا النيل التى تعد من أخصــب الأراضى الزراعية فى مصر، ويوجد عدد من الموانئ البحرية المطلة على البحرين

---

(١) عــن المصــرى اليوم – نفــين العيادى بتاريخ ٢٠١٢/٩/١٦م – الموارد الطبيعية لمصــر – مفردات للقوة ومقومات للنهضة.

(٢) جمال حمدان – شخصية مصر.

الأحمر والمتوسط وخليجى السويس والعقبة، وتعتبر حلقة من حلقات النقل المتكامل بين النقل النهرى والبحرى وتصل إلى(٦٠) ميناءًا بحريًا تساعد على تنشيط التجارة الخارجية لمصر[١].

وقد لعبت قناة السويس دورًا كبير دعم مكانة الموقع الجغرافى المصرى، حيث تصل البحرين الأحمر والمتوسط بطريق مائى بحرى مباشر دون أى حلقة برية وسيطة، ومنذ إنشاء القناة أضحت أهم طريق شريانى فى العالم للتجارة الخارجية والملاحة البحرية عمومًا، ولتجارة الشرق و الغرب خصوصًا، فمنطقة النفوذ التجارى للقناة تنبع من كونها تغطى أوروبا الغربية والوسطى ثم كل حوض البحر المتوسط بجانبيه ثم الشرق الأوسط، ثم جنوب آسيا وجنوبها الشرقى والشرق الأقصى حتى اليابان والفلبين ثم استراليا والساحل الشرقى من أفريقيا حتى موزمبيق[٢]، وقد وصل إجمالى عدد السفن التى مرت عبر القناة عام ٢٠١٢م نحو ١٧,٧٠ سفينة بإجمالى إيرادات بلغ نحو ٥,٢ مليار دولار[٣].

(ب) الموارد المائية.. الأمن المائى للتنمية:

يعد نهر النيل المصدر الرئيس للمياه فى مصر، ويعد من أطول الأنهار فى العالم حيث يبلغ طوله من المنبع وحتى المصب نحو ٦٨٢٥ كم٢، وتبلغ مساحة حوضه نحو ٣,١ مليون متر مربع، ويمتد فى إحدى عشرة دولة أفريقية هى تنزانيا، كينيا، زائير، بوروندى، رواندا، إثيوبيا، إريتريا، أوغندا، السودان، وأخيرًا جنوب السودان إلى جانب مصر، ويبلغ إيراد النهر نحو ١٦٣٠ مليار متر٣سنويًا، حيث تبلغ حصة مصر منه ٥٥,٥ مليار متر مكعب أى ٧٩,٣٪ من الموارد المائية تغطى ٩٥٪ من الاحتياجات المائية الراهنة، وتتوزع على عدة أغراض هى الشرب والرى والصناعة وتوليد الكهرباء، بجانب إمدادات النهر من المياه، يتم عبره نقل البضائع والناقلات (الملاحة النهرية) ووفقًا للجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ارتفعت كمية البضائع المنقولة عبر نهر النيل إلى أن وصلت عام ٢٠١٠م، نحو ٩ ملايين طن فى حين كانت عام ٢٠٠٩م، نحو ٥ ملايين طن.

---

(١) نسرين اللحام – سماء سليمان – رانيا صبرى – نحو الاستغلال الأمثل لموقع مصر الجغرافى.

(٢) جمال حمدان – المرجع السابق.

(٣) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء.

إضافة إلى ذلك يعد نهر النيل أحد مصادر الثروة السمكية فى مصر حيث يحتوى طمى النيل على المخصبات والعناصر اللازمة لتغذية ونمو الأسماك. وتشغل المصايد السمكية فى مصر مساحات شاسعة تزيد على ١٣ مليون فدان، وبما يعادل نحو ١٥٠٪ من الأرض الزراعية بها، وتتنوع هذه المصايد بحسب طبيعتها، فمنها البحار كالبحرين الأحمر والمتوسط، ومنها البُحيرات وتشتمل على بحيرات المنزلة والبرلس والبردويل وإدكو وقارون ومريوط والبحيرات المرة، وملاحة بور فؤاد، ومنها أيضًا مصادر المياه العذبة وتشتمل على نهر النيل بفرعيه والترع والمصارف، بالإضافة إلى البحيرات الصناعية مثل بحيرة ناصر والريان وكذلك المزارع السمكية[١].

وإلى جانب نهر النيل، تمثل المياه الجوفية موردًا مهمًا للمياه العذبة وتتعاظم أهميتها كونها المصدر الأساس فى صحارى مصر، فهى مورد آمن ونظيف يمكن استخدامه فى الشرب بجانب الزراعة، وتقدر كمية المياه الجوفية المستخدمة فى الوادى والدلتا عام ٢٠١٠م وفقًا لإحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء ٦,٣ مليار م٣/ سنة.

وتختلف مدى صلاحية المياه الجوفية للشرب من عدمه فى مصر من منطقة لأخرى[٢]، ففى الدلتا، تعتبر المياه الجوفية جنوب مدينة طنطا صالحة للشرب والاستهلاك الآدمى والزراعى وتنمية الثروة الحيوانية حيث أن نسبة الأملاح الذائبة لا تزيد عن ١٠٠٠ جزء فى المليون. أما شمال مدينة طنطا هى غير صالحة للاستهلاك الآدمى أو الزراعى لزيادة نسبة الملوحة لقربها من مياه البحر الأبيض المتوسط الذى تتسرب منه مياه شديدة الملوحة إلى باطن الأرض حيث تصل نسبة الملوحة الذائبة إلى ٥٠٠٠ جزء فى المليون.

بينما تعتبر نوعية المياه الجوفية فى الوادى جيدة وصالحة للاستعمال الآدمى الزراعى وتنمية الثروة الحيوانية إذا تبلغ المواد الذائبة نحو ٥٠٠ جزء فى المليون فى المتوسط.

بينما فى الصحراء الغربية، تقل الأملاح الذائبة عن ١٠٠٠ جزء فى المليون وتعتبر المياه الجوفية من نوعية جيدة من حيث نسبة الملوحة والقلوية، وفى الساحل الشمالى، المياه الجوفية فى هذه المنطقة غير صالحة للاستهلاك لزيادة الملوحة علمًا بأنه يوجد طبقة من المياه العذبة تطفو فوق المياه الجوفية المالحة وهى صالحة للاستهلاك الآدمى عند سحبها بمعدلات مناسبة لا تسمح بتسرب المياه المالحة لها.

(١) حسنى ثابت – التلوث يهدد الثروة السمكية.

(٢) مؤسسة حابى – المياه فى جمهورية مصر العربية.

وفـى البحر الأحمر وسـيناء، تعد المياه الجوفية فى هاتـين المنطقتين غير جيدة وغيـر صالحة للاسـتهلاك الآدمى أو الزراعى حيث تصـل الملوحة إلى ٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ جزء فى المليون فيمـا عدا بعض المناطق بالصحراء الشـرقية والغربية مـن خط السكة الحديد من قنا إلى سفاجا فتقل الأمـلاح الذائبة إلى ٤٠٠ – ٨٠٠ جزء فى المليون.

ج - الطاقة المتجددة.. معين لا ينضب:

تمثل مصادر الطاقة المتجددة، كالشمس والرياح، أهم البدائل الاستراتيجية للتغلب على معضلة نقص الطاقة الأحفورية، النفط والغاز الطبيعى والفحم، فى العالم، باعتبارها موارد لا تنضب، بعكس غيرها من موارد الطاقة غير المتجددة سالفة البيان[1].

وفى هذا الإطار تعد مصر من الدول الواعدة فى مجالات إنتاج الطاقة المتجددة لما تتمتع بـه مناخ ملائم وموقع متميز. فعلى صعيد طاقة الرياح، تعد منطقة قناة السـويس من أكثر المناطق التى تتميز برياح ذات سرعات عالية تصل إلى ١٠م/ثانية، كما تعد منطقتا الصحراء الشرقية والغربية وامتداد ساحل البحر الأحمر على طول خليج العقبة من أهم مناطق توليد الطاقة عن طريق الرياح، بما يجعل الدولة المصرية من أكثر الدول ملائمة لتنفيذ مشروعات توليد الطاقة الكهربائية بالرياح التى تتسم بالديمومة والاستمرارية وعدم النضوب.

وفيما يتعلق بالطاقة الشمسـية كمصـدر للطاقة المتجددة، فلمصـر العديد من المميزات التنافسـية التى تتمثل فى وقوعها ضمن الحزام الشمسـى وفقًا لأطلس الشمس الذى تتوافر فيه ساعات سطوع الشمس ويصل ارتفاع حدة أشعة الشمس المباشرة فى مصر والتى تتراوح مـا بين ٢٠٠٠ إلى ٢٦٠٠ كيلو وات سـاعة/م٢ وهذا غـير متوافر فى عدد كبير من الدول، الأمر الذى يجعلها مصدرًا مهمًا لتوليد الطاقة[2].

د - الثروة المعدنية.. تنوع فى الكم والكيف:

تمتلك مصر الكثير من المعادن التى تتنوع من حيث النوع والكم وأماكن التوزيع، حيث بلغت قيمة صادرات النشاط التعدينى المتمثل فى المحاجر والمناجم والملاحات عام ٢٠٠٧ م وفقًا لإحصاءات الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، نحو ٢٠٩٦ مليون جنيه.

---

(١) محمد رأفت اسماعيل – الطاقة المتجددة.

(٢) رشا قناوى – استثمر فى مصر – الطاقة المتجددة.

وتنقسم الثروات المعدنية فى مصر إلى ثلاثة أنواع أساسية، هى[1]:

١ – خامـات الطاقة، وتشـمل المواد البترولية كالبترول والغـاز الطبيعى، وعلى الرغم من ضعـف إنتاجية مصر من خامات الطاقة مقارنة ببعض الدول العربية الأخرى، ويتضح ذلك من ارتفاع معدلات اسـتيراد المشـتقات البترولية والغازية، إلا أن هناك طفرة فى مجال الاكتشـافات الجديدة التى تبشر بمستقبل واعد للطاقة فى مصر وتشمل خامات الطاقـة الصلبة فى طياتها عددًا من الأنواع، أهمها: الخامات الكربونية، كالفحم الذى يتواجد بمنطقتى عيون موسى وجبل المغارة شمال سيناء، وتبلغ الاحتياطات المؤكدة فى جبل المغارة ٢٧ مليون طن، منها نحو ٢١ مليون طن قابلة للتعدين، ويستخدم كوقود لمحطات توليد الكهرباء ومصانع الأسمنت وغيرها من الصناعات، والطفلات الكربونية التى تتواجد فى منطقتى بدعة وثورة بمحافظة جنوب سـيناء، حيث يقدر الاحتياطى المؤكد نحو ١٥ مليون طن، بينما يقدر الاحتياطى المحتمل نحو ٦٠ مليون طن، والطفلة الزيتيـة التى تتواجد فـى الصخور التى تعلو تكوين الفوسـفات فى محافظات البحر الأحمـر والوادى الجديد – الخامات المشـعة، كاليورانيوم الـذى يتواجد فى صخور الصحراء الشـرقية فى منطقة المسيكات وجبل قطار وسيناء ويستخدم فى إنتاج الطاقة النووية.

٢ – الخامـات الفلزية، وتشـمل ثلاثة أطيـاف من المعادن، وهـى، الخامات الحديدية والخامات غير الحديدية والمعادن النفيسة:

(أ) الخامات الحديدية، كالحديد الذى يعد من أهم الثروات المعدنية التى تشـتهر بها مصر، وهو أسـاس الصناعات الثقيلة حيث يسـتخدم فى صناعة السيارات والقطارات وأعمال البناء، ويبلغ الاحتياطى المصرى من خام الحديد وفقًا لتقديرات عام ٢٠١٠م، ٣,١ مليار طن[2]، كما بلغ إنتاج الحديد عام ٢٠١١م، نحو ٣,٩٣ مليون طن، وتتواجد رواسبه فى ثلاث مناطق، شرق أسوان حيث قدرت المساحة الجيولوجية الاحتياطيات الجيولوجية المبدئية لخام حديد شـرق أسـوان بنحو

---

(١) عاطف هلال – الموارد الطبيعية وآفاق تنميتها.

(٢) صندوق النقد العربى – التقرير الاقتصادى العربى الموحد.
Worledsteel association. steel Productio ٢٠١١م.

١٤ مليون طن، وبلغت كميات ما تم استخراجه من الحديد حتى توقف إنتاجه عام ١٩٧٤م، ٢,٧ مليون طن أى نحو ٢٤٪ من إجمالى الاحتياطيات الصالحة للاستعمال الاقتصادى بمفهوم الشراكة آنذاك، والواحات البحرية يوجد الحديد فيها فى أربع مناطق هى منطقة الجديدة وتبلغ الاحتياطات المؤكدة لخام الحديد فيها عام ٢٠٠٥م، بـ ٧١ مليون طن تكفى البلاد لمدة ٢١ عامًا فقط، أما فى مناطق غرابى وناصر والحارا فيبلغ رصيد الخام نحو ٧,٥ مليون طن، ولكنها غير مستغلة نظرًا لوجود نسبة كبيرة من المنجنيز مما يجعل الخام غير صالح للاستخدام فى الفرن العالى بحالته دون معالجة أو تركيز لإزالة الشوائب، أما خام حديد الصحراء الشرقية فقدرت احتياطيها عام ١٩٦٤م بـ ٥٣ مليون طن[1]. و(**الألمنيت**) الذى يتواجد بمنطقة أبو غلقة جنوب الصحراء الشرقية حيث يقدر الاحتياطى بنحو ٤٠ مليون طن منها احتياطى مؤكد ٢٥ مليون طن، واحتياطى محتمل ١٥ مليون طن وبالرمال السوداء على طول الساحل الشمالى شرق الإسكندرية حتى العريش ويبلغ الاحتياطى نحو ٧ مليون طن. و(**المنجنيز**) الذى يتواجد بمنطقة أم بجمة فى سيناء وعش الملاحة وادى المماليك وجبل علبة وأبو رماد الذى بلغ احتياطيها نحو ١٢٠ ألف طن، تم استغلال نحو ٥٠٪ منه منذ عام ١٩٥٥م، ويستخدم فى صناعة الصلب والبطاريات الجافة وفى صناعة الطلاء وأيضًا فى الصناعات الكيميائية وبلغت قيمة صادرات مصر منه عام ٢٠٠٧م لـ ١١,٣١ مليون جنيه. و(**الكروم**) الذى يتواجد فى البرانية ورأس شعيب، أبو ضهر، وادى الغدير، جبل الجرف، أم كابو، ويستخدم فى صناعة الصلب القوى والسبائك المقاومة للحرارة، المحركات النفاثة، التوربينات الغازية، دباغة الجلود والأصباغ، والصناعات الحرارية والتصوير الفوتوغرافى، ولكن احتياطيه غير مؤكد حيث يتراوح ما بين (٢٠٠٠ – ٥٠٠٠ طن).

(ب) الخامات غير الحديدية، كالنحاس الذى يتواجد فى سرابيط الخادم وفيران وسمرة بشبه جزيرة سيناء وأبو سويل ووادى حيمور وعكارم بالصحراء الشرقية، بينما الزنك والرصاص خامات توجد متلازمة فى بعض المناطق كمنطقة أم دغيج

(١) الهيئة المصرية العامة للثروة المعدنية – الحديد.

على ساحل البحر الأحمر وتصل الاحتياطيات المقدرة بها نحو ١,٦ مليون طن منها مليون طن خام مؤكد تبلغ نسبة الزنك به ١٤٪ ونسبة الرصاص ٢٪، والقصدير الذى يتواجد فى منطقة وادى العجلة غرب مرسى علم، ومنطقة مويلحة فى جنوب الصحراء الشرقية ويقدر الاحتياطى بها على ١٦٠ طن ومنطقة أبو دباب ويقدر الاحتياطى بها بنحو ٨٥٠ ألف طن وتحتوى على ٧٠٠ طن قصدير.

(ج) المعادن النفيسة، كالفضة، والبلاتين، والذهب، حيث يتواجد ثلاثة مواقع لإنتاج الذهب فى الصحراء الشرقية فى حمش أنتجت عام ٢٠٠٩م، ٦٠ كجم ووادى العلاقى، والسكرى حيث تم إنشاء أول مصنع متكامل بمجمع مبارك لإنتاج الذهب والفضة والنحاس بمنطقة السكرى وبلغ إنتاجه من الذهب خلال شهر يناير ٢٠١٠م نحو ٩١١ كيلو جرام وارتفع احتياطى الذهب هناك من ٣ ملايين أوقية فى مايو ٢٠٠٥م إلى ١٣ مليون أوقيه عام ٢٠١٠م، وتقع مصر فى المرتبة ٣٨ وفقًا للمجلس العالمى للذهب حيث بلغ إجمالى احتياطيها من الذهب فى مايو ٢٠١٢م لـ ٧٥,٦ طن[1].

٣ – الخامات اللافلزية، وتشمل خامات الصناعات الكيميائية والأسمدة، خامات الحراريات والسيراميك، خامات مواد البناء والرصف، أحجار الزينة والأحجار الكريمة وشبه الكريمة.

(أ) خامات الصناعات الكيميائية والأسمدة، كالفوسفات الذى يتواجد فى وادى النيل بين إدفو وقنا وعلى ساحل البحر الأحمر بين ميناء سفاجة والقصير وهضبة أبو طرطور وبها أضخم راسب من الفوسفات فى مصر حيث يقدر الاحتياطى منه بنحو ١٠٠٠ مليون طن، وبلغ إنتاج مصر من الفوسفات عام ٢٠٠٦م، نحو مليون طن، وبذلك احتلت المركز الخامس فى الإنتاج على مستوى الدول العربية بعد كل من المغرب وتونس والأردن وسوريا[2].

والبوتاسيوم الذى يوجد فى خليج السويس ومدخل البحر الأحمر، والكبريت الذى يستخدم فى صناعة حمض الكبريتيك الذى يستخدم بدوره فى الصناعات

(١) Worled gold council

(٢) عاطف طعمة – الفوسفات فى مصر.

الكيميائيــة وصناعة المفرقعــات والأسمدة الكيميائية والمبيدات الحشــرية وفى الأغراض الطبية وتبييض المنســوجات، والذى تتواجد رواسبه فى أكثر من ٣٠ موقعًا معظمها بجنوب الصحراء الشــرقية ويستخدم فى صناعة الورق والصابون وبعض العقاقير الطبية والمنظفات الصناعية وبلغت حجم صادرات مصر منه عام ٢٠٠٧م، ٢٤,٧٣ مليون جنيه مصرى.

(ب) خامات الحراريات والسيراميك، كالكوارتز الذى يتواجد فى جبل الدب وجبل مروات ومنطقة أم هيجليج بالصحراء الشرقية ويستخدم فى البصريات أما النقى منه يستخدم فى صناعة الخلايا الشمسية، وبلغت قيمة صادرات مصر منه عام ٢٠٠٧م نحو ٨,٥٩ مليون جنيه مصرى وهى نسبة منخفضة مقارنة بعام ٢٠٠٦م التى وصلت قيمة الصادرات ١٢,٧٠ مليون جنيه مصرى، ورمل الزجاج تتواجد الرمــال البيضاء عالية الجودة بالقرب من منطقة أبو زنيمة بســيناء وفى منطقة الزعفرانة على خليج الســويس ووادى النطرون وأبو الدرج ووادى قنا ويستخدم هــذا النوع مــن الرمال فى صناعة الزجاج، والفلســبار الذى يتواجد فى منطقة أســوان ووادى أم ديسى والعنيجى ويســتخدم فى صناعة السيراميك والخزف والصينــى والحراريات والزجــاج وانخفضت قيمة صادرات مصر منه، ففى عام ٢٠٠٦م كانت ٩٢٧ ألف جنيه وأصبحت عام ٢٠٠٧م نحو ٣٢٧ ألف جنيه.

(ج) خامات مواد البناء والرصف، التى تستغل فى إنتاج الأسمنت والطوب الطفلى والرملى والجيرى اللازم لعمليات المبانى والإنشــاءات ورصف الطرق، كالبازلت والحجــر الجيرى، تتميز مصر بوفرة هائلــة فى صخور الحجر الجيرى المتعدد الألوان ومن أهم محاجره طرة والمعصرة وبنى خالد وسمالوط بالمنيا وعلى امتداد طريق أســيوط، الواحات الداخلة والخارجة كما توجد أيضًا بعض المحاجر فى سيوة والعلمين، ويستخدم الحجر الجيرى كمادة أساسية فى صناعات الأسمنت والحديد والصلب، كما يســتخدم فى أغراض البناء والتشييد بجانب استخدامه فى الصناعات العديدة مثل صناعة البويات والبلاستيك والكاوتشوك والورق.

(د) أحجار الزينة والأحجار الكريمة وشــبه الكريمة يتوافر بمصر كثير من أحجار الزينة كالفيروز والجرانيت والديوريت والسربنتين والرخام والألباستر والأحجار

الجيرية الصلبة وتتوزع هذه الأنواع فى الصحراء الشرقية بمحافظة البحر الأحمر وأسوان وشمال سيناء ومحافظات بنى سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج[1].

– إن موارد مصر وثرواتها وإمكانياتها وقدرتها متعددة وعصية على الحصر وأكثرها لم يكتشف بعد .هذا بخلاف المشاريع القومية المعطلة مثل مشروع ترعة السلام وتوشكى، وشرق العوينات والساحل الشمالى الغربى، وهى مشاريع قادرة على إضافة ملايين من الأفدنة إلى الأراضى الزراعية، بالإضافة إلى البيئة الصحراوية التى هى المساحة الأكبر فى مصر، وبها من الموارد ما يسمح بتنمية حقيقية لو أحسن استخدامها واستغلالها وتوافرت الإدارة الناجحة والرؤية المتكاملة والإرادة الحقيقية الراغبة فى التغيير، فإنها ستقود الحلم وفكر التقدم، وأن أى مشروع يهدف إلى التقدم والازدهار والنهضة يجب ألا يخلو من خريطة معلوماتية، حتى لا تتبدد جهود بذلت فى مصر عبر عشرات السنين الماضية، وأنتجت دراسات ومشاريع وتجارب للنهوض بالزراعة والتصنيع ، واستخدام الموارد المتاحة لإنتاج الطاقة وغزو الصحراء وابتكار أفكار لاقتحام مجالات لم يسبق لنا أن اقتحمناها لقيام زراعات وصناعات غير مألوفة تضيف لنا إنتاجا وثروة، إن كل تلك المشاريع التى لم تكتمل بعد، يجب إدخالها ضمن الاستراتيجية الشاملة للتنمية.

ويتبقى لنا أن نسأل ماذا لو أحسنا استثمار الثروة البشرية (البذرة فى استغلال الثروة الطبيعية (التربة) أى شجرة تنمية وتقدم تنبت.؟!

- **ضمانات التحرك داخل المشروع الحضارى:**

(دولة المؤسسات):

النظام السياسى داخل الدولة يتحدد طبقًا لأحكام الدستور وسيادة دولة القانون، وترسيخ الديمقراطية، وإقرار الأمن وحفظ كرامة المواطن..إلخ

ولقد أوضحنا أن الثوابت الأساسية للمشروع الحضارى والتى عرضناها سابقًا، فيما يتعلق بالهوية، وابتغاء المصلحة العليا للوطن، تسمح للمشروع الحضارى بقدر من المرونة تمكننا من إطلاق سراح العقول للإبداع والابتكار داخل هذا السياق العام، والقدرة السياسية والتنفيذية على اتخاذ القرار، هذا القرار الذى يحتاج إلى ضمانات فى عصر صارت فيه المشكلات أشد تعقيدًا، ومثقلة بندرة متزايدة فى الموارد، وزيادة تعدد مصادر التهديد للوطن،

(١) مصطفى يعقوب – الموارد الطبيعية فى مصر.

منها ما هو قادم من الخارج و منها ما هو كامن داخل الوطن، وهذا ما يعنى أن القرار أصبح يحتاج إلى إطلاق الخيال من المسئول، والرجوع إلى أهل الخبرة والتخصص، وهذا ما يصل بنا إلى مفهوم دولة المؤسسات.

ومن هذا المنطلق سوف نقوم فى هذا المقام بوضع بعض المقترحات للنقاش، ولكنها لا تقتصر على اتخاذ القرار فقط، بل تتطلع إلى حماية مكتسبات الشعب المصرى وهى على النحو التالى:

١ – إنشاء مجلس الأمن القومى، ولقد نص على تشكيله واختصاصاته فى الدستور المصرى ٢٠١٤م.

٢ – إنشاء مجلس الدفاع الوطنى، ولقد نص على تشكيله واختصاصاته فى الدستور المصرى ٢٠١٤م.

٣ – المجلس الاستشارى (مستشارى الرئيس).

٤ – مجلس المتابعة، وهو يقوم بمتابعة توجيهات الرئيس مع مساعديه وبالتنسيق مع الوزراء ويضم (لجنة الدعم – لجنة الطاقة – لجنة الشباب... إلخ).

وهناك مسائل تستدعى اتخاذ القرار فيها أن يجتمع المجلسان معًا، لأن القرار قد يكون تنفيذه له مردود أو صدى أو تأثير فى اتجاه آخر، فهذا التجمع يعمل على التنسيق بين القرارات والتكامل.

٥ – الهيئة التنفيذية للجودة والإتقان، حيث يتم عمل تغيير هيكلى ووظيفى فى الهيئة العامة للمواصفات والجودة، وتضم داخلها (لجنة الأمن الإنسانى– لجنة الجودة – لجنة مكافحة الفساد الإدارى – لجنة المعايير والمواصفات).

٦ – هيئة المعلومات ودعم اتخاذ القرار الإدارى، وهى تضم:

(أ) بنك المعلومات (عن الوظائف – الثروات الطبيعية..إلخ).

(ب) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء.

(ج) المركز القومى للبحوث.

(د) الربط مع مراكز البحوث بالجامعات.

٧ – إنشاء جهاز لتعظيم الاستفادة من الثروات الطبيعية.

٨ – إنشاء جهاز لإدارة أصول الدولة.

٩ – إنشاء مؤسسة للتحفيز والإبداع.

١٠ – إنشاء مجلس تعاون دول حوض النيل.

١١ – العمل على إنشاء الاتحاد العربى (بالمعنى الكامل لكلمة إتحاد).

وقد يتم ذلك على خطوات مرحلية تبدأ من:

١ – زيادة التنسيق والتعاون فى مختلف المجالات وتوسيع هذه الدائرة وبقوة، حتى تكون العلاقات أكثر توطدا مع الدول التى أصابت العلاقات فيها شىء من الفتور، مما يعمل على توسيع دائرة مكافحة الإرهاب ومن هنا يكون الضغط الجمعى على الدول العربية التى تتبنى الإرهاب أكثر فاعلية.

٢ – تكوين مجلس أمن قومى عربى، والعمل على إخلاء الدول العربية من القواعد العسكرية الأجنبية .

٣ – توسيع دائرة العلاقات التجارية والسياحية عن طريق بعض الإعفاءات والحوافز.

٤ – زيادة التنسيق العسكرى مع الدول العربية على غرار ما تم مع الإمارات (بخطوات محسوبة ومدروسة فى أبعادها الاستراتيجية).

٥ – إعادة إحياء دور الأزهر الشريف التنويرى

٦ – إنشاء الهيئة العربية للبحث العلمى، وزيادة تبادل البعثات العلمية والخبرات بين الدول العربية، و تقوم تلك الهيئة بدراسة علمية شاملة لمكونات الدول العربية (نقاط تميزها ونقاط ضعفها بالتنسيق مع المختصين ووزراء الخارجية والقيادات السياسية، لوضع استراتيجية تعاون قائمة على التكامل، وذلك تمهيدًا لإنشاء السوق العربية المشتركة، وذلك بعد أن تكون خلصت النوايا وتم تجفيف منابع الإرهاب على المستوى العربى على الأقل).

٧ – تحويل الجامعة العربية إلى برلمان عربى.

هذه بعض المقترحات المجملة والتى تحتاج إلى تفصيل ومناقشة.

أما عن أهمية دولة المؤسسات:

فإن النظام المؤسسى، هو الذى يضمن تنفيذ المشروع الحضارى على اختلاف مراحله ويحمى مكتسبات الشعب المصرى.

فإذا كانت الرؤية تحدد الاتجاه الذى نسير فيه، والمشروع الحضارى هو الطريق، فإن النظام المؤسسى هو جانبى الطريق الذى يضمن أن الأجيال القادمة «شعبا وقادة» تسير

فى الاتجاه الصحيح، وعلى الطريق السليم، وهو ما يعمل على ترسيخ الاستقرار الحضارى، ويؤثر بالإيجاب فى عمر التقدم.

القيادة:

نعم، القيادة مرة ثانية، إنها هى التى تمسك بزمام الأمور فى حلقاتها المتتابعة فى إطار الرؤية العامة التى تصنعها ، وكل ذلك يدور فى فلكها ، فهى تجمع فى يدها كل الخيوط، وعندها تتجمع المحركات، فتحدد الاتجاهات لتنطلق فى منظومة متكاملة على رأسها القيادة وكل فى تفاعل مستمر وجيل يسلم جيل فى ظل تتابع مسترسل يبتغى المصلحة الوطنية يحميه نظام مؤسسى، يضمن له البقاء والاستمرارية ، ولتكن أول مراحل الوصول إلى هذه الرؤية والتى تحقق المشروع الحضارى للوطن تكمن فى أن تكون مصر عنوانها الآتى :

(أ) سياسيًا:

١ – مصر من أأمن بلاد العالم.
٢ – مصر بلد الحريات المسئولة.
٣ – مصر بلد ديمقراطى من الطراز الأول.
٤ – الدولة المصرية قائمة على المؤسسات القوية.
٥ – البيئة التشريعية فى مصر من أيسر البيئات وأأمنها.
٦ – الجيش المصرى الأول عالميًا.
٧ – مصر مركزًا للدعم الأفريقى.
٨ – مصر مركزًا للاتحاد العربى.

(ب) اجتماعيًا:

١ – مصر فى مصاف الدول الغنية.
٢ – نسبة البطالة فى مصر zero.
٣ – مصر بلد حضارى خالى من العشوائيات.
٤ – الشعب المصرى فى مصاف الشعوب التى تتمتع بالرفاهية.
٥ – الشعب المصرى ذو ثقافة واعية قائمة على الوطنية والتدين.
٦ – مصر مركزًا للثقافة والإبداع الإنسانى والإشعاع الدينى.

(ج) اقتصاديًا:

١ – الاقتصاد المصرى من أقوى اقتصاديات العالم.
٢ – معدل التنمية فى مصر من أعلى المعدلات العالمية.
٣ – نسبة الفائدة فى مصر zero.
٤ – مصر من أقل بلاد العالم فرضًا للضرائب.
٥ – مصر البلد الأول فى السياحة العالمية.
٦ – مصر مركزًا للتجارة العالمية.
٧ – مصر تحقق اكتفاءً ذاتيًا من الغذاء والقطن المصرى يستعيد مكانته.
٨ – شمس الطاقة المصرية المتجددة تسطع فى أوروبا.
٩ – مصر إحدى القلاع الصناعية فى العالم.
١٠ – مصر بلد النخيل والزيتون الأشهر فى العالم.
١١ – القطاع الحكومى فى مصر يمثل رأس حربة مع القطاع الخاص فى قيادة التنمية.
١٢ – مصر إحدى مراكز صناعة السفن العالمية.
١٣ – الثروة السمكية المصرية تغزو العالم.
١٤ – مصر بلد متقدمة فى محيط بيئى نظيف.

هذه ليست مجرد أحلام وطموحات غير قابلة للتحقيق، بل نحن قادرون على تحقيقها، فلا ينقصنا أى شىء، فبالإيمان بالله والتوكل عليه ثم بالعلم والتخطيط السليم نستطيع أن نحقق أحلامنا ونفرض طموحنا نستطيع أن نبنى تقدمًا ونصنع حضارة، أساليبنا العقل والرغبة فى التقدم والإرادة.

أما عن وسائل تحقيق هذا التقدم ، فهذا هو موضوع الباب الثانى من الكتاب.

■■■